من وحي حرب الخليج

اغتيال حلم

بقلم

محمود منسى

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م

دار الكتاب الحديث

دار الكتاب الحديث

القاهرة:

٩٤ عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ص. ب ٧٥٧٩ البريدى ١١٧٦٢ email: kdh@eis. com.eg

هاتف ٢٨٥٢٩٩٣ - ٢٧٥٢٩٩٠ (٠٠٢٠٢) فاكس: ٢٧٥٢٩٩٢ (٠٠٢٠٢)

الكويت:

شارع الهلالى - برج الصديق

ص. ب ٢٢٧٥٤ - ١٣٠٨٨ الصفاة email: ktbhades@ncc. com.kw

هاتف ٢٤٦٠٦٣٧ - ٢٤٦٠٦٣٤ (٠٠٩٦٥) فاكس: ٢٤٦٠٦٢٨ (٠٠٩٦٥)

الجزائر:

تجزئة «c» رقم 34 - درارية

ص. ب 61 درارية - محافظة الجزائر

هاتف وفاكس: 55 - 30 - 35 (002132)

الطبعة الأولى: ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م

تقديم:

إن من يملكون السلاح مغـترون دائما بقوتهم، والمغتر بقـوته يتحول إلى كائن عدواني أشبه ما يكون بمن يملك الظفر والنَّاب في الغابة!!

واستمرار هذا الغرور بالتفوق يفقده الإحساس بأي قيمة، ولا يبالي بمشاعر الآخـرين أو عواطفهم أو مآسـيهم؛ ويتصرف كـأنه مالك الكون وحده لا شريك له!!

وهذه مصـيبـة الإنسان منذ أن وجد علـى ظهر هذه الأرض.. أن يفعل المستحيل ليتحول إلى كائن مفترس!!

«المؤلف»

الطائرة تمتطي ظهر السحاب... لأول مرة يركب الطائرة فيرى السحاب تحته. هل يصدق أحد هذا؟... كم من منجزات معجزة دجنها التعامل اليومي فأصبحنا لا نفكر إلا فيما نفيده منها!!

لولا الطائرة هل كان من الممكن أن نصل إلى أرض الكويت في هذا الزمن القياسي، إنه بساط الريح الذي تخيله القدماء ولكننا نركب الطائرة ولا نفكر في عظمة هذا الإنجاز، فقد تعودناه.!!

لقد مضت الساعات الثلاثة إلا دقائق، ولا شيء يلوح في الأفق.. كان هذا صوت زميله الذي يجلس بجواره وجمعتهما نفس الظروف.. متعاقدان للعمل بالتدريس في حقل التربية بوزارة التربية في دولة الكويت..

وقف في الصباح ينظر من نافذة الغرفة يتأمل ما حوله... هل من المعقول أن تتحول الرمال إلى هذه الخضرة، وأن يقوم في وسطها هذا الصرح العلمي الباذخ؟! خرج من غرفته بملابس النوم لم يطق الإنتظار.. يريد أن يرى هذا العالم الذي ظهر له فجأة.. دخل المبنى ليلا لم ير اللافتة المكتوبة... إنه "سكن المدرسين العزّاب" الذين لم يتزوجوا أو الذين تركوا أسرهم، وجاءوا لأول عام.. إذن فهناك مساكن للمتزوجين في نفس المكان!

وهذا سور على مدى البصر.. لا شك أنه يحدد حرم المدرسة.. ولكن إلى أين يذهب ويمتد فليترك ذلك إلى ما بعد الإفطار إذ يبدو أنه لا نهاية له..

لفت نظره مبنى مقابل.. عبر الطريق وذهب إلى مدخله قرأ لافتة أخرى..

"نادي الطلاب" . . أي ناد هذا؟ شيء جديد غير مـألوف . . هل يترك الطلاب بيوتهم ويأتون إلى هذا النادي؟!

حول النادي ملاعب متناثرة للتنس، وكرة القدم . .

وفى الطريق إلى مطعم المدرسة رأى صفـوفا من المباني الكبيرة المتشـابهة . . أنيقة على هيئة مستطيل . . لا تزيد عن ثلاثة طوابق . . عرف أنها بيوت طلاب الداخلية الذين تتكفل بهم الدولة . . وكل من يرغب يقبل طلبـه . . دون النظر إلى أي شئ آخر فكلهم طلاب وأبناء البلد . .

الأسئلة كـثيرة من القـافلة الجديدة والإجابات تمتـصها من السـابقين في السكن وعلى موائد المطعم، وفي غرف المدرسين . . . مساحة المدرسة بمرافقها أكثر من خمسمائة فدان . .

شهقة تعـقب الإجابة . . لم يسمع أحد من قبل عن مدرسـة بهذه المساحة . . ولا عن مبنى بهذه الأناقة والبساطة . . داخل الوطن العربي أو خارجه!!

ناديان للأساتذة وآخر للطلبـة . . . مستشفى . . مساكن تسـتوعب جميع المدرسين عبـارة عن فلل متناثرة تحيط بمبـنى "مدرسة الشـويخ الثانوية" من الشرق . . ومـساكن الطلبة المقيمين في الغرب . .

ويقول حامد الجوهرى بلهجة أمه الدمياطية وبطريقتهم، رغم أن والده خليجي:

- اسمع يا حـبيـبي وبلغ كل الزملاء: لك ثلاث وجـبات في المطعم يومـيا . . شهـر . . أو أكثـر أو أقل . . حتى يتم الاتفـاق مع متعـهد "الكانتين" الخـاص بسكن المدرسين . . مقابل مبالغ زهيدة تخصم من الراتب . .

ويجيبه محمود المنزلاوي باسما:

- حسبتها يا دمياطي!!

- نصف دمياطي.. لا تنس أن أبي من "دبي" علي سن ورمح كما تقولون!

ثم يتابع:

- و"باص" خاص يأخذك من هنا إلى العاصمة يوميا لتشتري طلباتك في المساء، ويعود بك... ومدينة الكويت على بعد ثلاثة كيلو مترات تقريبا.

- شئ جميل ياحامد.. من أين تأتي بكل هذا؟

ويقول حامد ضاحكا:

- ألم تقلها قبل ذلك.. أنني نصف دمياطي والدمايطة رجال اقتصاد ناجحين؛ لأنهم يترجمون أحلام الناس بطريقة عملية.. ولا يخجلون من ذكر الحقائق المادية واضحة.. و«دبي» ستكون مثل دمياط.. بعد اكتشاف النفط.

- براءة ياعم.. وماذا أيضا؟

- لك أن تشتري ما تشاء من أي محل.. ولو لم يكن معك "مليم أحمر" حتي أول الشهر أو آخر العام القادم أو أكثر.. فهم لا يطالبونك حتى تذهب إليهم طواعية.

- شئ عجيب حقا.

ويتدخل زميل قديم سبقهما لسنوات فيقول موضحا:

- إنهم يفترضون في جميع الناس الأمانة والشرف، وهذا نابع من طبيعتهم.. إنها كلمة الشرف التي أخذها عنا الغرب ووصلت إليه عبر مسارب الزمن الخفية "بارول دونير" وجعلها أساسا لمعاملاته.

- ما أروع أن يكون لنا أجداد بهذه الصورة!

- وما أسوأ نحن أن نكون على هذا الوضع وننسى تاريخنا!

- لا تحولها مناحة.. أيها الشاعر نصف الدمياطي!!

- عندك حق.. الضرب في الميت حرام!!

- أهناك أخبار أخرى؟

يضحك حامد الجوهري:

- ما أشبه ماتقول بتقارير الشرطة والنيابة.

- لا تسبح بعيدا أيها الشاعر..

- انني هنا لا أسبح بعيدا... ألا يشبه ماتقول بما يقوله الضابط أو وكيل النيابة:

- هل لديك أقوال أخرى؟، على كل حال هناك مؤتمر بالمدرسة سيقيمه الطلبة ورجال التعليم من كويتيين ووافدين وخليجيين لتكريم المجاهدة الجزائرية.. رمز كفاح شعب الجزائر، وسيحضره كبار رجال الدولة.. إنها "جميلة بوحيرد".

- يبدو أن هنا إحساس دافق بقضايا الوطن العربي، آلامه و أحلامه!!

- يبدو هذا..

ويعود الزميل القديم إلي الحديث:

- لو كنتم هنا أيام أن تمزقت الوحدة بين مصر وسوريا لرأيتم الأعاجيب.. اندلعت المظاهرات في جميع المدارس وشاركتهم جميع طوائف الشعب حزنا ورفضا لما حدث ومناشدة للمسئولين بالعودة إلي الوحدة، ورابطوا أمام السفارات تعبيرا عن

حزنهم وشحبهم لما حدث فالوحدة كانت تمثل أملا لدى كل الناس هنا، وكأنما حولهم الانفصال إلى أيتام فقدوا عائلهم ومعينهم، وهم صغار لم يتعودوا خشونة الحياة، ومصارعة ذئابها والطامعين فيهم.. كانت خطب زعيم الوحدة تطربهم أكثر من طربهم لأغاني عبدالوهاب وأم كلثوم، وكانوا يسجلونها ويستعيدونها.. أمل ظهر لهم بعد قرون من التفرق والتشرذم يجدد فيهم ذكرى صلاح الدين، بالانتصار لهذه الأرض العربية وتراثها وثقافتها ولغتها العريقة، والوقوف في وجه الغزاة الطامعين الذين وفدوا عليها وانتهكوا قداستها وداسوا كرامتها..

لقد كان حزنهم بالغا، وأسفهم واضحا أكثر من المخلصين للوحدة في البلدين مصر وسوريا..

ويسأله محمود المنزلاوي عن سبب مجيء جميلة بوحيرد إلي الكويت بالذات بعد أن تحرر شعب الجزائر، فيبتسم الزميل فيقول:

- إن للكويت مكانة خاصة عند إخوتهم أهل الجزائر، فقد عبروا عن تضامنهم معهم في مواقف كثيرة ولم يبخلوا عليهم بشيء، وكان أهمها استضافتهم لبعثة جزائرية من خيرة شبابها وشاباتها للإقامة والدراسة بين إخوتهم الكويتيين، فليس بمستغرب أن تزور "جميلة" هذه الأرض من المشرق.. فمن يأخذ بيدك في الشدة لا يمكن أن تنساه في الرخاء .

ويقول حامد الجوهري بعد لحظة صمت وهما في طريقهما للسكن:

- إنني أحس بالاطمئنان هنا رغم أننا لم نمكث سوى فترة قصيرة.. فشعب كهذا يطيب لك العيش معه. لهذا أحببت أن أتعاقد هنا لأمرين: صحبتك يا محمود، والأمر الثاني وهو معرفتي بناس الكويت؛ فأنا خليجي و أعرف أهل الخليج جيداً، وعاشرت طلبة الكويت في مصر..

و يضيف محمود

- لقد سمعت أطرافاً عن هذا وأنا في القاهرة.. لقد قال الزملاء الكثير عن هذا البلد الفتي.. ولكني لم أدرك عـمق إحساسهم بقـوميتهم حتى أتيت إلـى هنا وسمعت ورأيت الحقيقة..

***

كنا نجلس في الغرفة الواسعة التي لا يفصلها عن مياه الخليج سوى ذلك الشارع الهادئ الذي لا يمر به أحد لا ينتمي إلى هذه المدرسة الفريدة في نظامها وسعتها، والتي تعتبر أعرق مدرسة بنيت على شاطئ الخليج، وبهذه الفخامة، وهذا الإتساع، وكأن بناتها قد وضعوا في اعتبارهم أنها ستكون نواة الجامعة المقبلة. . .

ويمتد نظره عبر النافذة أو النوافذ ليسبح في مياه "الجون" الذي كان يحتضنها، ويصلها بعمق الخليج، لم يكن يدري أو يتصور -وهو الذي عاش على ضفاف النيل- أن يلتقي بهذا الجمع من أبناء بردى والأردن ودجلة والفرات ويافا وحيفا وطولكرم ورام الله وعاليه، والخرطوم وتونس والجزائر والمغرب والسودان وغيرهم من أبناء الخليج واليمن. . ومن لم يكن مدرسا كان يعمل في مهنة اخرى جامعة دول عربية مصغرة حقيقية وعلى أرض الواقع.

كانت الغرفة تقع في الطابق الثاني في أول الضلع الممتد من مبنى الإدارة إلى داخل المدرسة، مما يعطيها أهمية أكثر من غرف المدرسين الأخرى، فاللغة العربية عند أهل هذا البلد لها مكانة مرموقة، أليست هي إهاب الشعر. . موطن حكمة العرب، ومصدر نبوغهم وإلهامهم. . ولم تتعرض لديهم للانزواء كما تعرضت خارج الجزيرة. . موضوع طويل عريض لم يرد أن يسبح على أمواجه حتى لا يفلت منه ذلك الشعور الذي هزه من أعماقه. . وهو أن أبناء البلاد العربية هنا على اختلاف أقطارهم وفيهم أبناء البلد يتناقشون في أمور السياسة بملء حريتهم. . يتحدثون دون خوف، فلم تفسد حريتهم تلك المقولة "ممنوع الكلام في السياسة" التي انتشرت في كثير من الأقطار العربية، و خاصة التي ابتليت بالانقلابات. . ويقطع الحديث الدائر عن الوحدة والانفصال دخول الجوهري الذي يتجه رأسا إلى محمود المنزلاوي قائلا:

- دعونا من كل هذا. . اسمع يا صاحبي هناك خبر هام. . .

فيقول عوبي الفلسطيني ساخرا.

- هل التحم كسر الوحدة من جديد؟!

ولكن محمود المنزلاوي يقول:

- أنا أعرف صاحبي.. لابد أن يكون هناك مشكلة مادية عويصة أو شعرية ضاق بها!

ويضحك حامد الجوهري ويصمت فيستحثه المنزلاوي بلهفة وهو يبتسم، فيقول الجوهري:

- ليس هذا وقته.. وعلى كل حال سنتأكد من الخبر عندما تأتي الجرائد من القاهرة

- أي خبر؟! لقد أخفتني..

- لا تخف.. فالأمر ليس خاصا بك.. ولكنه يعم الجميع.. وكلها نواحي مادية..

- أنت ابن طبيعتك الأصيلة، ووالدتك لها فضل كبير في هذا ..

يقولها ضاحكا.. وفي المطعم انتشر الخبر.. لقد كان آخر موعد لنزول الجنيه المصري لايتعدى عشرة أيام..

ويقول المنزلاوي بلا اكتراث:

- وماذا في ذلك؟ وهل ستحول فلوسك إلى مصر أم إلى دبي؟

وينظر إليه حامد الجوهري بابتسامته المعهودة التي تعبر عن السخرية و الإنكار قائلا في هدوء:

- سأشك أنك تفهم معنى هذا القرار.. معناه أن أي مواطن مصري موجود بالخارج سوف يحول مدخراته بالعملات الأجنبية، وسوف تحدد سعر هذه العملات. فسيظل سعر الدولار أربعين قرشا وعند وصولك إلى المطار ستكتب إقرارا بما معك من الدولارات، وتحولها هناك بهذا السعر رغم أن سعره قد ارتفع إلى الضعف..

ويتابع حامد:

- معنى هذا أنك تخسر نصف ما تملك.. في ظرف عشرة أيام... إذا لم تحول ما معك في هذه المدة!!

- إنه الاقتصاد الموجه.

- تمام.. ولكنهم يعطونك فرصة لأن تحول ما تستطيع تحويله.. لقد سمعت أن أحد الزملاء ينوي بيع سيارته ومصاغ زوجته ليحول ثمنها بالسعر السائد الآن وهو ضعف السعر مستقبلا، و أن بعضهم سيقترض من بعض الصيارف مبالغ يسددها على أقساط من راتبه الشهري..

- إنها محاولة للعب على اللوائح و القانون..

و يقول حامد الجوهري وهو يضحك ضحكته التقليدية:

- إنه لعب على سلم القانون..

و يتابع في مرح:

- أشبه بمن يتشعبط على سلم (الترماي) وقت الزحام.. وينزل في أقرب محطة عندما يلمح (الكمساري) ولن يكون كل الناس هكذا، ولن يقلل هذا من دخل (الترماي).

و يقول المنزلاوي باسما:

- وأنت لا شك من أهل السلم والدَّرَجَ طبعا، فأنت تحتاج إلى فلوس

لوالدتك.. التي لا تريد أن تغادر دمياط وستحقق حلمك بأن تبني لها منزلا بحديقة جميلة تليق بشاعر!!

- ونتشعبط على السلم مرة واحدة في العمر!! كما أنهم تركوا لنا هذه الحرية مؤقتا.. لأنها مرهونة بمصلحتهم..

كانت سنة عجيبة اقترض فيها المصريون رواتبهم مقدما من شركات الصرافة وترجموا الدنانير إلى جنيهات مصرية. ونزلت ملايين الجنيهات إلى مصر في هذه الأيام العشرة.... ويمضي كل شئ ولكن تبقى الصلة بين هذا المجتمع والوافدين عليه.. كانت الكلمة والشرف أساسا للتعامل.. ولم يسمع أحد أن طرفا أخل بالتزامه..

والذي يستدعي الدهشة إحساس التجار بهم... فالأسواق مفتوحة على مصراعيها لهؤلاء الوافدين يتعاملون معهم على الحساب المفتوح.. تدفع هذا العام أو العام القادم أو بعده.. الثقة المتبادلة بين الأطراف موجودة، والالتزام قائم دون صك أو شيك، وكأنك في عالم خيالي لا ينتمي إلى العالم المادي بما فيه من جشع و فساد وتلاعب بهذه الثقة الممنوحة بلا حساب.. وإن وجدت بعض السلبيات فإنها لا تمثل ظاهرة لتؤثر في تلك الصفحة البيضاء الناصعة التي حرصت الأطراف على بقاءها كذلك.. وبقدر ما كانت المحلات مكدسة بأحدث ما أنتجته مصانع الغرب والشرق إلا أن أهل الكويت ظلوا على أصالتهم في المشرق.. فالبضائع متروكة في الطريق دون حراسة تذكر.. ومع هذا لم تحدث سرقة واحدة جديرة بالإنتباه.. شئ غريب وعجيب في بابه ولكن يبدو أن الأمانة والثقة في أي شعب أثمن من كنوز الأرض قاطبة..

سلوك حضاري عرفه الشرق من قديم الزمان وآمن به.. وحافظت عليه شعوب وإن لم تكن في حساب الأمم المتقدمة تكنولوجيا.. فالحضارة ليست قاصرة على تطوير المادة.. ولكنها شئ كامن في نفس الإنسان يجعلك تطمئن إليه.. وتتعامل معه في ثقة

ورضا.. وكأن الطرفين أسرة واحدة.. فالتقدم التكنولوچي موجود بل أصبح لعبة الأمم وهدفها، ولكن أين الأمان في هذا العالم الخائف المذعور !!

و يدخل عندما رآه فقد كان المطعم شبه خال تقريبا ولم يبق فيه سواه.

يقول حامد متعجبا وهو يجلس في مواجهته:

- لماذا لم تحول ما معك من الدنانير؟ كل إخوانك فعلوا نفس الشيء.. بالإضافة إلى أن أحد الزملاء قد تطوع بأن ينزل إلى القاهرة في آخر يوم.. وبذلك يستطيع كل من لم تسعفه ظروفه أن يدبر نفسه على هذا الموعد..

- ربنا يبعث.

- تريد أن توهمني أنك صرفت كل ما معك؟

و يؤكد له محمود المنزلاوي أنه لا يملك مالا يحوّله.. وأمام إصراره يخبره أن عوني النفيسي زميلهم الفلسطيني قد اقترض منه مبلغ خمسمائة دينار لعلاج أخيه في مستشفيات إسرائيل.

وسأله المنزلاوي بعدها في جدية:

- ماذا كنت تريدني أن أفعل؟ أرده في موقف كهذا؟ ماقيمة المال في موقف إنساني؟! أم أن دعوى العروبة كلام يقال دون مضمون من التعاون والإيثار والتضحية أيها الشاعر؟!

ويسأل المنزلاوي:

- ماذا كنت ستفعل إذا وجه إليك هذا الطلب؟

ويضحك ويتابع:

- صحيح أنك نصف دمياطي.. ولكنك شاعر!!

وفي المساء وجد المنزلاوي زميله عوني النفيسي يعيد إليه المبلغ شاكراً وقائلاً:

- صدقني إذا قلت لك إن لك مكانة في قلبي أكثر من الأخ الشقيق.. وأن العروبة حقيقة تجري في عروقنا، ولقد جسدتَ هذه الحقيقة عندما عرفت الظروف، والآن تغيرت الأمور فعدت إليك بالمبلغ.. فشكراً أخي ولن أنسى صنيعك.

ويقول محمود المنزلاوي منكراً:

- وأخوك؟!

- لاتقلق ياأخي.. وقاك الله.. لقد ذهبت إلى أخ كويتي وشرحت له الموضوع فسارع إلى طلبي، بل حاول أن يعطيني ضعف المبلغ.. زميل قديم وصديق.. وعربي أصيل.. ماقصدته في أمر إلا ولبى طلبي.. نموذج طيب للإنسان..

- من هو يا عوني؟! أرجوك لاتنزعج بسببي، وأرسل المبلغ لأخيك.. أرجوك يا عوني.. دعنا مرة نتحرر من عبودية المادة!!.

- إن ما أقوله لك هو الحقيقة، وإذا كنت لاتصدقني فاسأل فيصل الثنيان.. زميلنا بالمدرسة.

- مدرس التاريخ؟

- نعم.. عشنا هنا جميعاً كأسرة واحدة.. والمادة تذهب وتجيء.. ولكن يبقى الإنسان.. وفي هذه المواقف يظهر معدنه وأصالته!!

* * *

كان اسم مدينة "الأحـمدي" يتردد على ألسنة الكويتيين وغـيرهم داخل الكويت وخارجها، بل وفي أنحاء العالم، فهي معقل صناعة البترول وتصديره. . ولم يكن أحد يتصور أنها بهذه الأناقة والجمال. . طراز معـماري فريد، تحيط بكل منزل حديقة واسعة حافلة بشتى أشكال وألوان الزهور النادرة في نسق عجـيب مبهر. . حتى بدت المدينة بما يحيط بها من صحراء مترامية، وكـأنها ابتسامة على وجه عبوس، أو زهرة في حقل من الأشواك. .

ونظرت نحـو حامد الجـوهري. . فإذا هو يخـرج أدواته ليسـجل فيهـا مشـاعره وإحساسه بهذا الجمال النائم خلف ستائر الصحراء.

وقال في ابتسامة مشرقة:

- ما هذا الذي أرى؟ أحلم أم حقيقة؟!

- الاثنان معاً.

- ماأروع أن تجتمع الثروة وحب الوطن والديرة. .

- إذا أضيف إليهما الإخلاص. . كانت النتيجة ماترى. . .

وينادي يعقوب الجاسم رئيس المعسكر على الحاضرين ثم يقول:

- لم يبق غـائباً عـن المعسكر حـتى الآن سـوى نائب الرئيس فـيصل الثنيـان، ومدرس العلوم كاظم السامرائي.

ويقول حامد الجوهري مداعباً:

- ربما نسي واتجه إلى «سامراء» بالعراق لزيارة الأسرة وأم الجهال. .

ويضحك كل الموجودين، بينما يتابع يعقوب الجاسم:

- وإذا كـان السامـرائي ضل طريقه وشطح إلـى موطنه في العـراق كمـا يدعي الشاعر. . فأين ذهب فيصل فهو إنسان منضبط. . وهو ابن الديرة. . إننا مضطرون إلى تأجيل افتتاح معسكر البيئة حتى يأتي الغائبون. . . وتكون فريق من المدرسين والطلاب، أخذوا سـيارة وانطلقوا عـائدين على طريق «الأحمدي-الكويت» لمعـرفة سبب الغـياب والعودة بنائب رئيس المعسكر. . والسامرائى مدرس العلوم. . .

وكانت المفـاجأة في انتظارهم، فقـد وجدوا سيارة كـاظم السامرائي قد أصـيبت إصابات بالغة وملقاة بجانب الطريق، وعلموا من شهود الحادث أن شخصاً آخر قد نقله إلى سيارته، وانطلق عائداً به إلى المستشفى الأميري. .

أخذت الأمور تفرض نفسها. . فلم يكن أمامهم إلا الانطلاق إلى المستشفى. .

كانت حالة "كاظم" خطيرة تستدعي نقل كميات من الدم. . ومن حسن الحظ أن فيـصل كان من نفس فـصيلته النادرة. . فـأصر على أن يأخذوا منـه كل مايحتـاجه من دماء. . ولكن ماأخـذوه لم يكن كافياً. . وألح فيصـل على أن يأخذوا منه المزيد لإنقاذ حيـاته. . ولكن الأطباء رفضوا هـذا خوفاً على حيـاته أيضا، ولم يفض الاشتـباك بينه وبينهم إلا وصول الأساتذة والطـلبة. . فقد وجدوا أن أحد الـطلاب له نفس فصيلة دم كاظم. .

وتأجل افتـتاح مـعسكر البـيئة يـومين كانا يومين حـافلين لاينساهمـا الأطباء أو العاملون في المستشـفى، فقد تحول المستشفى إلى مـدرسة. . الناظر والوكلاء والمدرسون والعاملون ذهبوا جميعاً لزيارة كاظم السـامرائي. . وعبروا عن سعادتهم لنجاته. كانت أياما عربية حـافلة أثارت الوشائج الخفية، والروابط غيـر المرئية التي تربط بين أبناء الأمة العربية. . وتظهر قوية في المحن والخطوب.

واقترح بعـض المدرسين -بعد أن تماثل للشفاء- أن يذهب اثنان منهـم في سيارة

لاصطحاب زوجته وأولاده من سامرّاء في العراق، وتعهدت إدارة المدرسة بمساندتهم، وأن تطلب من وزارة التربية تخصيص منزل له ولأسرته مجهزاً بالأثاث بصفة استثنائية حتى نهاية العام الدراسي. . وتمت الموافقة على الاقتراح من جميع المسئولين في الوزارة وغيرها. . ولم يوقف هذا الاقتراح سوى كاظم السامرائي وقال:

- وأنتم جميعاً. . ألستم أهلي وعشيرتي؟! يكفيني منكم هذا. . إنني لن أنسى هذا ماحييت!! وسأذكره لأبنائي وأهلي. . حتى يشعروا بعزة الترابط بين أبناء الأمة العربية.

ولاحظ محمود المنزلاوي بعد انتهاء المعسكر اختفاء سيارة كاظم السامرائي من مكانها. . فأسر بهذا إلى حامد الجوهري. . وسرعان ما انتشر الخبر. ووصل إدارة المدرسة. . واتصلت الإدارة بالشرطة لتعرف الحقيقة. . وعرفت أن الشرطة سحبتها من مكانها وأودعتها أحد مواقعها. . حتى يتم استلامها من صاحب العلاقة. .

وبعد شهر خرج كاظم السامرائي من المستشفى. . وذهب إلى سكن المدرسين العزاب بثانوية الشويخ. . وفوجئ بأن السيارة موجودة تحت المظلة نفسها التي كانت تقف عادة تحتها. . فلم يصدق عينيه. . ولكنها كانت سيارته. . سليمة تماماً. .

ويقول محمود المنزلاوي في دهشة:

- لم أكن أتصور أن طلبة يكنون هذا الوفاء لأستاذهم. . إنها صورة تجسد حب الطالب لأستاذه إذا أحس منه الإخلاص في عمله. . فقد يجمع بينهما رباط من الحب المجرد الخالي من الغرض مدى الحياة. . بل تظل ذكرى عزيزة لما بعد الحياة في مخيلة من تبقى منهم. .

كان هذا النسيج العربي الذي جمعته الظروف في هذا الجزء من الوطن العربي بوعي أو دون وعي حلما عربيا طالما هفت إليه النفوس منذ ألف عام. . أن يعيش العرب

ثانية تحت مظلة واحدة لا تمزقهم حدود مصطنعة، أو مصالح زائلة.. وقد كان هذا يسعد الكثيرين ممن أدركوا أن هذا الحلم بدأ يتشكل و يؤتي ثماره.. ويصبح كل من يعيشه نواة صالحة للإثمار في قطره.. ومركزا لدائرة عربية في بلده.

أَلِفَ الجميع هذا الحلم -من وعوا و من لم يعوا- وجعلوه واقعاً، وبدأوا يتعاملون على هذا الأساس.. فالأرض أرضهم و المصالح مصالحهم.. والتلاميذ و الطلاب أبناء جلدتهم وآباؤهم أتراب لهم..

في نشرة واحدة صادرة من وزارة التربية صدرت حركة ترقيات ضمت قيادات للمدارس والتوجيه، وشملت المصري والفلسطيني والسوري واللبناني والإماراتي وغيرهم مع الكويتي جنباً إلى جنب..

وانتقل محمود المنزلاوي ناظراً للسّالمِيّة، وفالح الشويخ للمتنبي.. كما انتقل فيصل الثنيان ناظراً لكيفان، وحامد الجوهري مدرساً أول للدعية وغيرهم كثير، لافرق بين كويتي وغيره.

كان فراقهم لثانوية الشويخ أشبه بفراق ديار الأحبّة، وأنشد الجوهري قصيدة ألقاها في حفل أقيم لتكريمهم، كما فتح المنزلاوي بكلمته عيون زملائه على الأمل والحلم الذي يعيشونه في هذا الجزء من العالم العربي على البوابة الشرقية، وأكد فيصل في كلمته على العالم العربي الواحد، وأنه الأمل الوحيد لنهضة العرب...

ومضى كل منهم إلى طريقه.. وإن ظلوا على عهد الوفاء لهذا المبنى العريق، بل ظلوا يترددون على المدرسة والنادي ويحضرون حفلاته الأسبوعية، وكثيراً ماكانوا يأتون معاً أو منفردين.. يتأملون البحر أمام مدخل المدرسة وخاصة وقت الغروب وكأنهم يناجون المكان بلغة صامتة.. وكم كان أسفهم أن تتحول المدرسة العريقة إلى جامعة بعدها.. وكانوا يتساءلون: لماذا لم تُبْقِ الكويت على هذا الأثر النفيس باسمه ورسمه؟!

إنه ماض وتراث، ومن الصعب على من عاشه تغيير هويته حتى ولو تغير إلى جامعة.. فالإمكانات قـادرة على بناء جامعـة من طراز جديد وفريد.. ولكن كـان لابد أن تبقى ثانوية الشويخ رمزاً عزيزاً خالداً.

* * *

في نهاية شارع "القاهرة" وقبل دوار "عبد الله السالم الصباح". . وفي عتمة المساء لاحظ محمود المنزلاوي سيارة أمامه تدعوه للوقوف. . نزل منها اثنان. . ترجل من السيارة وصافحهما وقال أحدهما:

- أهلاً. . سيادتك الناظر الجديد؟

- أهلاً. . ولكن من أنتما؟!

ويشرحان الموقف، إنهما مدرسان بنفس المدرسة ويريدان أن يجلسا معه. . وهناك من الزملاء من يريد أن ينضم إلى هذا المجلس. .

كان الموقف مفاجئاً. . ومن باب المجاملة قبل الدعوة، وهل في استطاعته غير هذا؟! ومن لهجتهما عرف أنهما فلسطينيان.

وكان اللقاء في الموعد في الرأس بالسالمية على شاطئ الخليج في كازينو الخليج الفضي. .

لم يكن حفل تعارف بقدر ماكان شرحاً لواقع المدرسة من وجهة نظرهم. . فالوكيل بالمدرسة استغل الناظر السابق واستولى على سلطاته. . ويشاركه في هذا شقيق زوجته مدرس اللغة الإنجليزية.

كانوا يتناوبون الحديث وكل له شكوى. . وجلس المنزلاوي حائراً بماذا يجيبهم. . . لم تطأ قدماه أرض المدرسة بعد. . فماذا يقول؟ التزم الصمت.

كما أن الشاكين والمشكو في حقهم من قطر واحد. . وهي أيضاً قضية من طرف واحد. . غاب فيها الخصم، ولايمكن استدعاؤه. . بل إن الشاكين لو سألتهم عن إمكانية سماع الرأي الآخر لرفضوا. . إذن هي نميمة. ولايمكن لأي عاقل أن يتصرف على هدى نميمة. . وهب مايقولونه صحيحا. . فأين الدليل؟

أخذ يحسد حامد الجوهري على حظه.. فرئاسة مدرسة ليست كرئاسة مادة أقصى عدد أفرادها عشرة.. أما مدرسة فيها مايزيد عن مائة مدرس وإداري ومشرفين ووكلاء وألفين من الطلاب كلهم معلقون في عنق الناظر علمياً وتربوياً.. يقف وراءهم ألوف من أولياء الأمور وأسرهم، بل والمجتمع بأسره.. جميعهم شركاء في إدارة المدرسة يحصون عليها أخطاءها، وقد ينسون حسناتها في لحظة من لحظات سوء الفهم.. هذا ماسمعه من التعليقات بعد أن عُيِّن ناظراً.. رغم التهاني والتبريكات التي انهالت عليه من كل اتجاه.

كانت العيون تتجه إليه من أبو إياد وأبو مازن وأبو عبدالله تنتظر رداً.. وكان الرد سهلاً وبسيطاً وهو أنه لايستطيع أن يبت في قضية الخصم فيها غائب أو أن يعلق على شئ؛ ووعدهم بأن يتحرى الحقيقة.. ويتعامل على أساسها.. وفي الطريق أخذ عقله يسترجع الموقف.. الخصمان من قطر واحد.. ويلجأ إليه أحدهما لأول وهلة، ودون سابق معرفة.. مامعنى هذا؟ وهل يستدعي هذا تشاؤمه بدلا من أن يعطيه إحساساً ثرياً باختفاء التشرذم والتفتت والانطلاق نحو العالم العربي الواحد.. وإمكانية وجود مجتمع عربي تزول فيه الحواجز.. ويسود فيه الإحساس بالأخوة.. إنه يعيش داخل هذا الإطار الذي تمناه دون افتعال أوتشنج، ودون خطب حماسية.

وكما كان سعيدا مهيأ لهذا، كانت المدرسة كذلك.. يعيش من فيها أسرة مترابطة تتفاعل كخلية واحدة... وتناقش القضايا السياسية في إطار الوطن العربي الواحد، وكما كان التراث يجمع بينهم برباط قوي فإن الذوق والفن أيضا له جذوره العميقة في أعماقهم.. فعبد الوهاب يشدو والكل يطرب، وأم كلثوم تصدح والجميع في غاية النشوة، وفيروز تغني فتستقطب الأسماع والقلوب، وشادي الخليج، وغريد الشاطئ، ودنيا العرب نشوى، وآخرون من كل قطر.. من العراق وسوريا والجزائر والمغرب

والجزيرة العربية والكويت وغيرهم.. حلم جميل يعيشه العربي سعيدا..... من يدرك يحس بالنشوة والأمل، ومن لا يدرك يشعر بالرضا والأمان.

ما كاد يستقر في مجلسه حتى قال:

- الحقني يا محمود.. لقد وجدتها.. الحقني يا أخي..

فأجابه محمود مداعبا:

- وجدتها؟ ماذا وجدت أتظن نفسك أرشميدس؟ أم أنك اخترعت بحرا جديدا في الشعر؟ أيموت الزمار ويده تلعب؟!

- يابني آدم أقول لك وجدتها، وأنت تعرف ما أقصد، وجدت النصف الذي كنت أبحث عنه، إنها أجمل من سميراميس أسطورة الجمال.. وأروع من بلقيس ملكة سبأ!!

- هكذا الشعراء دائما نظرهم (شيش بيش) وأحيانا يرون الأشياء مقلوبة ومعكوسة.. تعرف أحمد رامي شاعر الحب و الغزل.. ظل يتغزل في "قلة" طوال عام كامل ويظنها فتاة تقف في الشرفة.. ألم تسمع عبد الوهاب يقول هذا متندرا على ضعف نظره؟!...

- يا أخي اسمعني.. أنا منذ رأيتها وأنا في حال لا تسر عدوا ولا حبيبا.. صورتها لا تغادر خيالي أو عيني.. السهاد صديقي.. والليل أطول من ليل النابغة.. وأحلك من ليل امرؤ القيس.. لقد قلت فيها أكثر من قصيدة.. وكان لابد لها أن تعرف، فما أقسى الحب من طرف واحد!!

و يقاطعه محمود المنزلاوي:

- ماذا تقصد؟

- أرسلت إليها ((باقتين)) من هذه القصائد، وسأرسل الثالثة:

- و أين تعمل هذه الحبيبة؟

- ناظرة بمدرسة مجاورة، كأنها لؤلؤة خرجت من محارة.. لا أدري إلى أي قطر تنتمي.. فهي حواء وأنا آدم...

- ماذا تقول أيها الشاعر المخبل؟!

- كما سمعت..

- ألم أقل لك إن الشعراء مجانين؟

-إي جنون في أن تحب، وأن تنظم ما تشعر به؟

و يقول محمود ضاحكا:

- إلى هذا الحد وليست هناك مشكلة.. أما أن ترسل إليها بقصائد.. فهذه هي الكارثة.. ويصمت حامد الجوهري قليلا ثم يقول:

- وماذا أفعل؟ أظل هكذا أتقلب على الشوك وهي تنام هادئة، وتسعد بنظرات المعجبين..

- ما أغباك.. إنها مخاطرة قد تكلفك إلغاء عقدك والرحيل من هنا بأسرع مما تتصور، وترك ديار المحبوبة بلا عودة.. وبلا مكافأة أيضا!!

و يثور الجوهري:

- ولكنها لم تشك ولم تعترض..

- هذا لا يبرر هذا التصرف.. وبصرف النظر عن أن الوزارة تحرص على كل من تعمل في ميدان التربية كأغلى ما عندها فضلا عن أنها قدوة لتلميذاتها، فماذا لو

كنت مسئولا و عـرفت أن أحد الموظفين يتغزل في إحدى الموظفـات وبخاصة إذا كانت ناظرة، ويرسل إليها قصائده الملتهبة؟!

ويقول الجوهري مرتبكا:

- ومن سيبلغ المسئولين في الوزارة؟

- ربما هي.. أو العزال.. لقد كانوا دائما حربا على الأحباب!

- معقول؟! لا تدعني أقلق..

- كف عن هذا العبث أيها الشاعر العبيط.. فأنت ابن الخليج!

- ألم يتغزل الشعراء في النساء منذ بدء الخليقة؟!

- حقـا لقد تغـزلوا حتى في بنات الخـلفاء، ولكن لم يرسل أحـدهم قصـيدة لمحبوبته.. كما أن ردود الأفعال كانت في أغلبها قـاسية وعنيفة. ألا تتذكر قصة مجنون ليلى.. وكان سبب حرمانه من محبوبتـه أنه تغزل بها.. قصة مشهورة وتدل على مزاج العرب وتقاليدهم!! حـقا كان هناك من النساء من يطلبن الغزل. ويتـعرضن للشعراء رغبة في هذا.. ولكن الشاعر لم يكن موظفا بوزارة.. وهي لم تكن نا لمرة، كان مجرد عبث ظريف.. أفق ياصاحبي..

- ماذا تقصد؟

- أوقعت نفسك في ورطة لا يعلم أحد مداها.. إلا إذا كانت الحبيبة قد لطشها شعرك المنفوش، وشكلك الملخبط هذا..

- أتمزح؟

- أنا لا أمزح.. ولكنك دائمـا تتصرف بلا حكمـة إلا في المسائل المادية.. مع أن المفروض يكون العكس، ولكن شاء الله أن يخلقك مقلوبا هكذا، وكان المفروض أن لا تكون شاعرا..

وينفعل حامد الجوهري:

- ماذا فعلت حتى تشمت بي هكذا.. وتلقي الخوف في روعي بلا سبب معقول؟!

- بلا سبب!! أنت تحلم يا صاحبي.. هب أن الفتاة تصرفت بحمق كتصرفك، وأخذت هذه الخطابات وذهبت إلى وكيل الوزارة أو إلى المدير ولم تذهب رأسا إلى الوزير.. ماذا يكون الموقف أيها الشاعر الذكي!!

- أيمكن أن تفعل هذا مع شاعر معجب وهي خريجة كلية الفنون الجميلة وتقدر الفن الجميل..؟

- ولم لا؟ أدع ربك لتضيع الرسائل في طريقها إليها!!

ويقول حامد جادا:

- أنا لو كنت أضمن استجابتها لي.. لما همني أي تصرف تأتي به الوزارة.. ولكن الخوف أن أفقد الإثنين معا.

و أراد محمود المنزلاوي أن يخفف عنه بعد أن أحس أنه أزعجه بما فيه الكفاية فيقول ضاحكا:

- اسمع يا حامد.. ما دمت تقول إنها فنانة، فالأمل في أن تقدر هذا الإعجاب.. لا أن تسبب لك مشكلة..

وكان ما توقعه محمود المنزلاوي.. وتحولت إلى مشكلة على مكتب وكيل الوزارة..

***

بعد تحية العلم سارت الطوابير إلى الصفوف، ورجع الناظر إلى غرفته، وساد الهدوء الذي يعقب دخول الأساتذة إلى صفوفهم، ولكن سرعان ما تحول هذا إلى ضجة، أقدام صاعدة هابطة على الدرج المجاور للإدارة، فوجئ جميع من كانوا بالإدارة بمجموعة من الطلبة والأساتذة يحملون جسما على أيديهم، وينطلقون به خارج المدرسة..

كان مدرس الموسيقى.. وما هو إلا وقت قصير حتى دق جرس الهاتف... كان المستشفى ينعى للمدرسة مدرس الموسيقى.. هكذا تنطفئ الحياة وهي شعلة ثائرة، ويجف ماؤها وهي نبع ثري متدفق.. هذا الشاب الممتلئ بالحيوية والآمال يمضي هكذا!! إن الحياة والموت لغزان عجيبان حيرا البشرية منذ القدم فبعضهم قال القدر بلا تخطيط ولا حكمة، وبعضهم قال إنها لحكمة وتدبير مسطور.. ومع هذا يبقى الحزن والرهبة والخوف من هذا المجهول المتربص بالكائن الحي.. أكثر بكثير من الفرح بقدومه إلى الدنيا!! عجب كل من في المدرسة وخارجها واحتاروا في السبب.. لقد أمضى ليلته الأخيرة ساهرا مع فريق موسيقى زائر..

كانت كلمة الموت تتردد على ألسنة من لم يدركوا كنه الموت، ثم رأوه رأي العين من الصبية والشباب.. وخيم شبحه على المدرسة لفترة طويلة استمرت حتى نهاية العام الدراسي..

وسار في جنازته الكثير من جميع أقطار الأمة العربية ممن يعرفونه وآخرون لا تربطهم به صلة، وتقدمهم المسئولون في أعلى مراتب الوزارة..

وفتحت المدرسة لاستقبال المعزين من رجال وزارة التربية والطلاب وأهالي المنطقة..

وجاء مأمـور الشرطة.. وبعد تقديم العزاء لأسـرة المدرسة.. طلب من الناظرأن يجلس معه على انفراد.. قال وهما وحدهما خلف باب مغلق:

- أردت أن أعزيك أولا.. وأن أطلعك على سر خاص بالمرحوم...

ثم أخرج من جيبه لفافة صغيرة.. وقدمها له.. بهت الناظر وسأله:

- ما هذا؟

- أنظر ما بداخلها يا مُعَوَّد..

أخرج من اللفافة مادة صغيرة ترابية اللون وقال مرتعدا:

- أظنها قطعة من مخدر.

- إنها قطعة من الحشيش.. وجدناها في جيب المرحوم.

- قصدك أنه كان يتعاطى المخدر؟

- ليس هذا فقط.. بل إنه مـات منه.. وكان المفروض أن نبلغ النيـابة.. وقد تطلب تشريح الجثة.. وينتشر الخبر.. وفيه تجريح لرجال التعليم.. لذا اكتفينا بإبلاغك حرصا على كرامـة المدرسة.. وحتى لا نجرح إحساس زوجـته وأولاده.. ونحول بينهم وبين المكافأة التي يستحقها من يموت أثناء العمل..

- بارك الله فيك يا سيادة المأمور، ويكفيـه أنه لاقى مصيره، وأنهى حياته جزاء فعله هذا.. كما فجع زوجته التي ستضع مولودها الأول بعد شهور.

- كان الله في عونها وعونكم.

وانصرف المأمور.. واحتار محمـود المنزلاوي بين إبلاغ الخبر لزوجته وزملائه ولو بطريقـة سرية حـتى يخفف من لوعـتهم عليـه.. أم يسيـر في طريق المأمور، وينـحاز

لكرمه، ويضع السر في بئر، ويهيل عليه التـراب مع صاحبه وإذا كان هذا المجتمع يضم بين حناياه هذه المثاليات، ويتغاضى عن الهفوة بإيثار نابع عن أصالة عميقة الجذور؛ فلم لا يمضي معهم على نفس الطريق!! فلم يخلق بعد من عاش بلا خطيئة من البشر!!

* * *

كان يمر بين أجنحـة المدرسة كعادته.. حتى لحـقه أحد الفراشين قـائلاً في لهجة استعجال:

- أستاذ.. أستاذ.. المدرس الزناتي يطلبك في الصف الحين..

وصل إلى الصف.. أخذ المدرس يشرح له سبب استـدعائه في نفاد صبر.. بأن طالباً قد أعطاه ظهره، وكـون مجموعة يقلدونه.. ويتحدثون مـع بعضهم منصرفين عن الدرس مما يشكل إعاقة كاملة له عن أداء واجبه..

كان والد الطالب الذي سمّاه المدرس اسماً مشهوراً يحمل في ثناياه المركز المرموق في الدولة والمجتمع..

لقد وضع المـدرس عود الثقـاب في يد الطالب، فمن المـمكن أن يشعل الفـتيل فيـجرد الناظر أيضاً من سلطتـه المفترضة.. إذا أسـاء الطالب التصرف أمـام زملائه في الفصل.. فمجرد كلمة نابية في هذا الموقف مشكلة..

أحس المنزلاوي بالمأزق.. فلم ينطق سوى أن قال:

- اتبعني ياسالم..

وانطلق الناظر إلى مكتبه.. والطالب خلفه..

طلب منه أن يقف أمـام الباب فوقف ممتـثلاً.. واتصل بوالده، رد عليـه المشرف على رعاية الأولاد الذي وعد أن يزور المدرسة في صباح اليوم التالي..

وجاء في الموعد.. وشرح له الناظر الموقف.. فقال الرجل:

- كل ما يهم والده أن لايكون قد أهان أحد أساتذته، فإهانة الأستاذ أمر لايغتفر لديه.. حتى أنه كـان قد هم بتناول طعامه.. وعندمـا اتصلت بنا أمس كف عن تناوله خوفاً من ذلك.. وظل هكذا لايقرب الطعام حتى جاء سالم، وشرح الموقف من وجهة نظره.

ولكنه لم يصدق.. وأخبره بأن أهم شيء عنده هو احترام مدرسيه، حتى وإن تجاوز عقابهم الحدود المعقولة واستشهد بقول شوقي.. ثم أوصاني بأن أنقل إليك رأيه فقال:

- إن لك حرية العقاب الذي تراه، حتى لو نقلته إلى مدرسة في جزيرة فيلكا!!

وبعدها بأيام كان "رمضان" وجاء المشرف وأبلغ المدرسة رغبة الرجل الكبير في تناول الإفطار معه.. ورجا أن تبلغ الدعوة إلى جميع المدرسين بجانب إدارة المدرسة.. ولما أخبره الناظر بأن العدد سيكون كبيراً.. أجاب بأن كل شيء جاهز.. وأن لايضعوا هذا في الاعتبار!!

وكان يوماً حافلاً جلس الجميع أسرة واحدة يتبادلون الأحاديث الطريفة.. وكان سالم وأخوته مع والدهم في استقبالهم.. وجلس الرجل يشاركهم أنسهم وبهجتهم وكأنه يعرفهم منذ زمن بعيد.. وزالت حدود الأقطار وكأنهم أبناء ربع واحد.. لاحدود ولاسدود ولاقيود..

وأصر الرجل الكبير على أن يعرض عليهم فيلماً عن صيد البر وطائر "الحباري" كان مشتركاً فيه..

وأثناء العرض تعطل الجهاز فقام الرجل بنفسه بتفكيكه ومحاولة إصلاحه، وعرض بعضهم معاونته.. ولكنه رفض قائلاً:

- لافائدة فينا إذا كنا نعيش حضارة لانفهمها، وأن نظل مستهلكين.. لابد لنا أن نفهم ونستوعب حتى نلحق بركب التقدم..

***

جلست "لبنى" في غرفة وكيل الوزارة مضطربة بعد أن أصدر أمره إلى مدير مكتبه بأن لا يسمح لأحد بالدخول، بل إنه طلب منه أن يخبر كل من يأتي لمقابلته أو يتصل بأنه غير موجود.

ناول لبنى ورقة.. وقال في جدية:

- إقرئي ما فيها.. يا معودة..

ثم يتابع بعد فترة كافية:

- هل استوعبت ما فيها؟

فأجابت ولا زالت مضطربة وفي خجل:

- إنها قصيدة شعرية.. شاعر يتغزل..

- هل قرأت توقيعه؟

- إنه وقع بحرفين "ح-ج".

- هل تعرفين هذا الشاعر؟

فوجئت بما يقوله الوكيل فقالت وقد زاد ارتباكها، وانقلب إلى شيء من الحدة:

- من أين لي يا أبو مرزوق أن أعرف؟.. إن حياتنا لها طابع ونظام دقيق.. وحتى لو حضرنا ندوات ثقافية، فليس فيها شعراء يتغزلون بالمرأة.. وكانت قمة المفاجأة أن قال الوكيل:

- ولكن هذه القصيدة جيء بها، وكانت على مكتبك، واسمك مذكور فيها..

صعقت لبنى بما قاله الوكيل، وأكدت له باكية أنها لا تعرف شيئا عن القصيدة أو قائلها.. ثم إنها كانت مريضة منذ أسبوع.. ولم تصلها رسائل بالبريد أو باليد تحمل قصيدة أو نثرا.

ويهدئ الوكيل من روعها.. ويخبرها بأنه لا يتهمها بشئ وأنه يعرف حصانة أخلاقها، وأن القصيدة فعلا أرسلت إليها خلال إجازتها، وأكد لها أنه سيبحث عن صاحب هذه القصيدة، وسينال عقابه.. وأخبرها بصراحة أن قريبة له تعمل وكيلتها فى المدرسة.. وكانت الرسالة موجهة إلى ناظرة المدرسة فظنتها جاءت بطريق الخطأ من الوزارة وهي التي حملت القصيدة إليه، فأراد أن يتأكد من شيئين: هل هذه القصيدة هى الأولى أم سبقتها قصائد أخرى؟، وهل تعرف قائلها؟، فنفت له كلا الأمرين...

ثم قام وفتح باب غرفة مجاورة قائلا:

- تعالي يامعودة.. طيبى خاطر ناظرتك، واشرحي لها الموقف.. حتى لا تتعقد الأمور بينكما..

وقالت الوكيلة أنها أرادت بهذا حمايتها.. فهي أولا تعرف أخلاقها، وطهارة سلوكها ومن بيت كويتي كريم.. وقد يكون هذا الشاعر عابثا.. ويشيع بين زملائه وإخوانه متفاخرا بأنها تبادله الحب.. فأردت أن أقطع عليه الطريق.. ونعرف مَنْ هذا الشاعر ونوقفه عند حده.

وبعد أن انصرفتا، دق جرس الهاتف فرد وكيل الوزارة:

- آلو.. أبو جاسم.. خبرني.. عرفته.. كيف.؟ أنا على كل حال في انتظارك في الديوانية اليوم. .وكان اللقاء، وسأله الوكيل:

- ألم تعثر على مايؤكد أنه صاحب هذا الشعر؟.

- بصراحة يابو مرزوق.. نحن أناس مسئولون، والأحكام دون دليل قاطع.. أو تبني على الظن ظلم، ونعوذ بالله أن نكون من الظالمين.. وهذه القضية لايصح معها سوى الاعتراف.. ولا أظن أنه سيعترف إلا إذا كان مخبلا أو شجاعا أكثر من اللازم

لأن الاعتراف سيكلفه عمله.. فضلا عن الفضيحة.. لأن عرف الناس أشبه بحد السيف لا يفرق بين ضحية وأخرى، أو بين ظالم ومظلوم ومجرم وبرئ.. أما عالم الشعراء فهو بلا قيود أو سدود لا يعرف العادات ولا التقاليد.. فهو لا يعترف إلا بالعواطف بل إنه غارق في بحارها.. ولا يدرك هذا إلا الشعراء.. أتنكر هذا وأنت منهم يابو مرزوق؟.

ويضحك وكيل الوزارة ويقول:

- كأني بك تقف محاميا عنه وعن فعلته يابوجاسم.. فهل يمكن أن تمر مثل هذه القضية في وزارة الإعلام وأنت وكيلها وشاعرها.. وتغتفر للجاني فعلته.. غزل رسمي !!

- لا تعقد الأمور هكذا يامعود.. وعلى كل حال أنت لم تستجوب الرجل بعد.. ولا أظنه سيعترف فما هو إلا عبث شاعر.. وكان الشعراء يقولون ويتخطون حدود المعقول والحلال ثم يجلسون مع خليفة المسلمين، ويعطيهم الجوائز والعطايا، ولم يسلط عليهم سيف الشريعة.. فهم طيور مغردة مسحورة بجمال الكون وخفاياه وكنوزه التي لا يدركها الإنسان العادي.

- هون عليك يا أبو جاسم، فليس لدينا سيوف لنقطع ألسنة الشعراء.. اطمئن فالشعر باق مادام هناك عرب... فهو موسيقاهم الخالدة الباقية.. ولكننا لا نغتفر له إرسال القصيدة إليها!

وعندما استدعاه الوكيل وسأله قال حامد الجوهري في اعتداد:

- نعم أنا القائل...

وقال الوكيل في جدية:

- ألا تعرف ثمن هذا الاعتراف؟

- حقيقـة لا أعرف. . فالشجاعة عند بعض الناس تهـور. . ولكن الشجاعة لا تأبه بذلك. . لأنهـا صدق وقـدرة على مـجابهـة الحقـائق. . أليس كـذلك يا سيـدي الوكيل؟!

ويتابع حامد الجوهري بعد لحظة صمت:

- هذا ما حدث يا سـيدي. . لا أستطيع أن أخنق مشاعـري. . ثم إنني أعترف بإنني قد تجاوزت الأعـراف والتقاليد. . لكن ما حـيلتي. . إنها قدر الشعـراء، لقد قتل الشعر أعرق شعراء العربية "المتبني"، فأين أنا منه؟!

- لقد تجـاوزت حدودك بإرسـال القصيـدة اليها، هذا مـا نؤاخذك عليـه. . أما الشعـر فهو ديوان العرب. . ولا تـستطيع قوة مهـما بلغ جبـروتها أن تزودك عنه. . أو تردك دونه. .

❋ ❋ ❋

فكرة جيدة.. لماذا لا أذهب إلى المدرسة عصر هذا اليوم وأكتب بعض التقارير.. لقد بقيت أيام معدودة علي تقديم التقارير السنوية عن المدرسين.. وجمع محمود المنزلاوي أوراقه واتجه إلى المدرسة.. وجد حركة غير عادية فيها.. بل أنه اكتشف عالما آخر يديره الشباب.. أن هناك فرق شعبية تزاول الرياضة.. وأهمها رياضة كرة القدم، ولديهم الحرية لاختيار أي مدرسة لمزاولة مبارياتهم فيها دون أي اعتراض من أحد..

واحتار الناظربين أمرين: أن يغلق مكتبه علي نفسه وتقاريره أو يذهب لحضور المباراة.. وخاصة بعد أن سمع أن شخصية كبيرة في حقل التربية، ونجما من نجوم المجتمع يشغل منصبا سياسيا هاما سيزور المدرسة... أبلغه بهذا حارس المدرسة في بساطة.. ولكنه رجح الاحتمال الأول.. نظرا لاقتراب موعد تقديم التقارير، ولا يجب أن تنبهه الوزارة إلى هذا كما حدث في سنوات سابقة بالإضافة إلى أنه استبعد حضور هذه الشخصية الكبيرة إلى المدرسة.. دون استعداد مسبق، تعلم به الإدارة لتجهيز الملاعب والأماكن لاستقبال هذا الضيف المرموق.. كما أنه لا يمكن أن يترك قصره المكيف في "بنيد القار" ويأتي إلى منطقة السالمية في هذا الوقت من النهار وفيه يتحول الجو إلى لهيب في نهاية العام الدراسي.

أغلق الباب وراءه.. وجلس إلى مكتبه.. ولكنه لمح من شباك الغرفة سيارة فارهة تدخل إلى ساحة المدرسة..

كانت السيارة تحمل الزائر المرتقب.. هكذا دون إعلان أو إشعار بقدومه..

قال الرجل ببساطته المحبوبة:

- دعاني شباب الساحات الشعبية الصيفية لحضور مبارياتهم.. فأحببت أن يظل الأمر شعبيا بسيطا لارسميا.. كلنا أهل، وأبناء ربع واحد !!

وحضر الرجل اللقـاء من أوله إلى نهايته، وقام عن كرسي عـادي وسلم الجميع ميـداليات تذكارية للفائز والمهـزوم، وبأريحيتـه وطيبته ودون حـراسة أو رسميـات قبل الرجل دعوة الناظر لتناول بعض المرطبات.. وجلس يتـحدث مع الجالسين عن ذكريات شبابه، وفتوته، وصيد اللؤلؤ.. والعناء والمشقة التي كان يلاقيها الصيادون في مجابهتهم للبـحر دون مـعـدات سوى مـا توارثوه عن الآباء والأجـداد من أدوات بسـيطة.. وأن بعضهم كان يقضي خلال هذه الرحلة الشاقة.. ثم يضيف الرجل ببساطة:

- لقد عوضنا الله عن اللؤلؤ بهـذا النفط.. ،كأنه يكافئنا عما لقيـناه من مشقة طوال تاريخنا المعرق الطويل..

ثم نظر الى الصور المعلقة على الجدران.. وأخذ يخـتبر الموجودين من الكويتيين وغيـرهم في أسمـاء المراكب التي كـانت تحتويهـا هذه الصور.. فـهذه المركب تـسمى «البغلة».. وتلك «البوم» للأسفار، «الجلبوت»، و«السمـبوك» للصيد، وأخذ يحدد كلا منها بأبعادها وأوصافـها، ومميزات كل منها وإمكاناتها.. حديث خبـير متمكن من كل مايقول وببسـاطة وابتسامة راضية تعلو وجهـه، واحترام لكل من في المجلس.. بل كان يداعب الفراشين ويدعـوهم لزيارته في قصره.. وجـميعـهم يعرف قصـره لأنهم دائما يترددون عليه.. ويقابلونه متى أرادوا..

ويلتفت الرجل إلى محمود المنزلاوي قائلا في عتاب:

- أسـتـاذ.. لماذا تخـلفت عن زيارتي سنوات، ربما ثـلاث أوأربع.. ألم تكن تزورنا؟!

- بلى.. إن ماتقوله صحيح.. والحقيـقة أن عمل النظارة لايتيح للإنسان فرصة للنظر خلفه..

- ويقاطعه الرجل في هدوء ومودة: نحن عرب يا أستاذ ولنا عاداتنا وتقاليدنا،

والمودة بيننا يجب أن لا تنقطـع.. وكمـا كنت تأتي أنت وعائلتك لتـزورنا في الأعـياد لاتقاطعنا.. فقد ظل زملاؤك يصلوننا كما كانوا..

ثم نظر إلى لوحة أخرى بها خيول تجري فتنهد وقال:

- رحم الله أيام الشباب.. لقد كان لي مع الخيل قصة.. قصة الشّباب والدفاع عن تراب الوطن.. وشـاهدها القصـر الأحمـر وسيفي الـذي لازلت أحتفـظ به، أما شبابي وحصاني فقد سبقاني إلى الخلود...

***

كان يوم وقفة عيد الأضحى.. وهو يوم لا ينساه محمود المنزلاوي. زارته في منزله مدرستان من معارفه.. وقالت الاثنتان في صوت واحد:

- نريد أن نأكل سمكا.. لقد شبعنا من الدجاج في سكن المدرسات الداخلي.. وقد وعدتنا زوجتك بوجبة من سمك الخليج الشهي..

ويجيب المنزلاوي ضاحكا:

- ورأس "الجرجور" الكبير لن تأكلا سوى "النجرور" أو السبيطي وإلا "فالزبيدي؟".

ولكنهما رفعتا يديهما معترضتين وقالتا:

- لن نأكل سوى "الميد" المشوي.. لقد وحشنا البوري وهو شقيقه هنا في الخليج..

وحاول المنزلاوي وزوجته أن يغيرا رأيهما زيادة في إكرامهما ولكنهما أصرتا على رغبتهما..

وقال المنزلاوي محاولا إثناءهما:

- إذا كنتما ترأفان بحالنا لأن الميد أرخصها..

ولكنهما قاطعتاه في صوت واحد:

- يحيا الميد.. ولا شيء غير الميد.

وانطلق محمود المنزلاوي إلى سوق السمك.. وفي شارع القاهرة وبالتحديد عند نادي المعلمين برز له فجأة رجل يعبر الطريق.. لم تستطع "الفرامل" أن توقف السيارة مكانها.. وكانت الحركة التى تلت التوقف وحدها هي التي دفعت الرجل وألقته المقادير في طريقه..

توقف نهر الشارع من الناحيتين . . حادثة . . اجتمع الناس من كل اتجاه، فلا يجمع الناس سوى أمرين: كارثة أو فرح!!

ونزل محمود المنزلاوي، ولا يدري كيف استطاع أن يقف على رجليه . . كان جسمه ينتفض وكأنما زارته حمى مفاجئة . . إنه لا يطيق أن تذبح دجاجة أمامه . . فكيف يقوى على إصابة آدمي؟!

حمل الناس الرجل في سيارة إسعاف . . كيف جاءت، ومن الذي طلبها، وكأنما كانت تسير خلفه، تعرف موعد الحادث ومكانه . .

وجاء رجل شرطة وطلب منه بأدب أن يترك السيارة مكانها، ويذهب معه إلى مخفر شرطة «الدسمة» . . كان الضابط شابا به شهامة وتجربة واضحة. قال وهو يطلب "شايا" وماء له عندما عرف مكانه وعمله:

- هون عليك يا أستاذ . . فما حدث قضاء وقدر . . وأهون من حوادث كثيرة بل أنه أبسطها . .

ثم أضاف:

- وأنتم رجال العلم والتعليم لكم مكانة خاصة في هذا البلد . . والحمد لله أن جاء التقرير الطبي بعد أخذ الأشعة . . "إنه كسر مضاعف" والمصاب تحت العلاج . .

وحوله إلى المحقق . . ولما انتهى طلب منه أن يتصل بأحد من المسئولين بالوزارة ليكفله فأجاب المنزلاوي:

- إنني مواطن عربي . . وأنت الآن تعرف مكان عملي ووظيفتي فهل أحتاج إلى أحد ليكفلني . . فضلا عن أن لك مطلق الحرية في إبلاغ الوزارة بما حدث . .

فأجاب المحقق:

- تكرم أستاذي.. فعلا الأمر لا يحتاج.. مع السلامة!!

وخرج المنزلاوي وهو لا يذكر مما قاله المحقق سوى الجملة الأخيرة.. كان الوقت عصرا، وبدلا من أن يتوجه إلى منزله انطلق إلى صديق.. وبعد أن أحاطه بما حدث اتجها معا إلى المستشفى الأميري بشارع الخليج العربي حيث يرقد الرجل على سريره ورجله المصابة مرفوعة إلى أعلى.. بدا الرجل -وقد ناهز الثمانين- بأربطته، وفي ثياب المستشفى البيضاء، ونحول جسمه كأنه مومياء..

سأل الرجل وكان بدويا من العوازم نظر إلينا من خلال بصره الكليل وقال:

- من أنتما؟

فتقدم محمود المنزلاوي منه وقال:

- سامحني يا معود..

فأشاح الرجل بوجهه إلى الناحية الأخرى وصمت قليلا كأنما يقاوم.. وقال وهو يحاول أن لايعلن عن ألمه:

- أين تعمل؟

- بوزارة التربية.

فقال الرجل ببساطته البدوية.. وفطرته السليمة:

- ولد أخي يعمل موظفا بالوزارة.

وحدد له الرجل مكان العمل. وتابع الرجل في صوته الواهن:

- لي رجاء عندك يا ولدي.. ابحث عن ابن أخي الحين ليبلغ أولادي بما حدث حتى لا يبحثوا عني كثيرا.. وأنت تدري أن العيد غدا!!

ولم ينم محمود المنزلاوي ليلته قبل أن يحقق رغبة ضحيته.. وهو يشعر بالتزام شديد نحوه، رغم إيمانه بأن هناك شيئا ما خفي عنه هو السبب فيما حدث.. وأنه كان ضحية مثله تماما.. فهو كما قال للمحقق لم يتعود السرعة.. وأن الرجل كان يجري في اتجاه السيارة ولم يستطع تفاديه تماما، وأنه سوف يحاكم على جناية لم يرتكبها.. فهو في نظر القانون مخطئ حتى يثبت العكس، كما أن أهله سينظرون إليه نظرة معتدٍ اعتدى على أبيهم أو قريبهم ولا يدري ردود فعلهم.. إنهم في بلدهم، وهو غريب عنهم..

كيف حدث هذا؟ إنه يخاف السرعة طول حياته، ويعتبرها رعونة.. أمن الممكن أن يكون جانيا في جريمة ألقيت عليه؟ أيكون السبب هو ضعف بصر الرجل؟! ولكن من أين يعلم القاضي الذي سينظر في القضية؟ أو أهله وعشيرته وهو يملأون الصحراء؟! وهب أنه مات، فما موقفه بين القضاء والثأر.. كابوس يلاحقه في صحوه، ويخنق نومه وراحته؛ نسي كل ما حوله، وحامد الجوهري ومأزقه، بل إنه كان يتمنى أن تكون مشكلته يسيرة كالجوهري.. حتى ولو كانت تهدد بقاءه في الكويت..

كم كان يتمنى أن يترك كل شئ مقابل أن يسمح له بالسفر. إن المصائب والبلاوي أشكال وألوان وهذه أشدها ..

لقد سقط في بئر لا يعرف له قرار، ولن ينقذه منه سوى أمرين معا.. أن يبرأ الرجل ويعيش، وأن يأتي الحكم في صالحه.

ومما خفف عنه قليلا أن الرجل أخرجه أهله من المستشفى بعد أسبوع من الحادثة، وأزالوا الجبس عن رجله وجبروه بالطريقة التقليدية المتبعة منذ قديم الزمان .

وقال طبيب المدرسة :

- إن المسئولية الجنائية أصبحت منتفية الآن بعد مغادرته المستشفى حتى لو لم يشف أو حدثت له مضاعفات أشد أو هددت حياته.

ورغم هذا بقي القلق يلاحقه.. فربما ينتكس.. ربما يموت.. سوف تلصق به كل نتيجة فيما لو حدث شئ ما.. حتي لو حكمت المحكمة ببراءته.

وجاءت المحاكمة.. وحصل على البراءة، واتضح أن ضعف البصر كان السبب فيما حدث...

كما أثبت المحقق أن أهل المصاب لم يحضروا المحاكمة، ولم يعيروها التفاتا.. مما أكد البراءة.

وأخذ محمود المنزلاوي يسأل نفسه: كيف حدث كل هذا؟ وكيف مر دون أن يضايقه أحد.. بل إن أقرباءه كانوا يقابلونه أحيانا داخل المدرسة وخارجها دون أن يتعرض له أحد ولو بكلمة.. بل كانوا يحاولون التخفيف عنه عندما يجمعهم به مجلس.. وكان يهمس لنفسه: غير معقول أن يكون هذا المجتمع بهذا الوعي الحضاري.. والفهم لطبيعة الحياة العصرية الحديثة.. والقدرة على الإندماج مع الغير دون حساسية أو تمييز..

* * *

* جاء الفراش العراقي "عاشور" لاهثا واندفع إلى مكتب الناظر:

- أستاذ.. أسرع الأستاذ فؤاد في خطر.. أسرع أستاذ.

وانطلق الناظر يعدو خلف عاشور إلى المرسم.. كان المدرس مستندا إلى كتفي زميلين والدماء قد غطت أجزاء من قميصه..

اسرعا بحمله في سيارة وانطلقا به إلى المستشفى.. كان ينوي اليوم أن يذهب إلى ثانوية الشويخ عصرا ويقف ليرى غروب الشمس، كما كان يفعل قبل أن تتحول إلى جامعة.. وإن كان يرى وجوها جديدة غير التي ألفها وعمل معها.. كل هذا لا يهم.. فالإنسان قد يحزم أمتعته ويرحل من مكان ما.. ولكن تبقى خيوط غير مرئية تشده إلى المكان وإلى الذكريات فيه حتى ولو كانت غير سارة.. وهكذا كان دأبه مع تلك البقعة الغالية على نفسه دون غيرها.. لماذا.. لا يدري!!

كان واجبه أهم من عواطفه وأحاسيسه.. أن يذهب إلى المستشفى ليرى فؤاد.. شاب طيب، خريج حديث.. ليست به صلابة المدرس المتمرس، رأى أحد طلابه منصرفا عنه يقهقه داخل مرسمه خلال الدرس.. نهاه ولكن الطالب لم يرتدع.. واستمر في تجاهله.. موقف محرج طلب منه أن يخرج تجاهله أيضا؛ أصبح الأمر تحديا واختبارا للقوة بين طالب مشاغب ومدرس لين العود.

دفعه المدرس خارج المرسم، وصفعه، فأخرج الطالب «مفكا» وطعنه في عنقه!!

وخلال التحقيق الذي أجرى أحس المحقق الذي قدم من الوزارة أن الطالب كان متأثرا بالأفلام الأجنبية وبخاصة أفلام العنف.. وأنه شاهد ليلة الحادث فيلم "مدرسة المشاغبين" "لسدني بواتيه"، وأنه اتفق مع بعض زملائه على التحرش بالمدرس.. لطيبته وصغر سنه..

واهتـزت أجـهزة الإنذار بـالوزارة، وجاءت اللـجان من إدارات مـخـتلفـة ومن إخصـائيين اجتـماعيين ونفـسيين لدراسـة هذه الظاهرة الجديدة التي هزت هذا الـنسيج المتجانس. .

وخلال هذه التحقيقات المتلاحـقة. . ضاق أحد المدرسين الكويتيين، ولم يتحمل ما حدث لزمـيله غير الكويتي. .أخذ الطالب المعـتدي دون أن يدري أحد، وانطلق إلى صف خال، وأخذ بثأر زميله. . وأسرف في عقابه، وأصبحت قضية أخرى جانبية، ولما سأله المحققون قال:

- إننا في مجتمع لـه قيمه وتقاليده، ومنه من قال: من علـمني حرفا صرت له عبدا، فكيف يجرؤ أحد على الخـروج على هذه القيم. . كان آباؤنا يقولون لمعلمينا لك اللحم ولنا العظم. .

ولما كـتب الناظرتقـريره واتجه به للـوزارة. . وقابل الوكـيل قـال له بعد أن قـرأ التقرير:

- أنت ناظر المدرسة ولك الحق في اقتراح العقوبة المناسبة.

شعر محـمود المنزلاوي بانتمائه إلى المجتمع. . واكتـفى بنقل الطالب إلى مدرسة أخرى مع فصله أسبوعين حتى تظل المدرسـة والمدرس في مكانهما الرفيع. . واستجاب الوكيل، وأقر العقوبة دون تردد. .

و عاد المنزلاوي إلى المدرسة، وما كاد يجلس حتى استدعى عبد الرحيم الشهابي الذي ثأر لزميله وقال له:

- لم أكن أتصور أن تقف مع زميلك فـؤاد. . . فرغم أنك كويتي والطالب ربما

كـان من مـعارفـك أو تربطك به قـرابة.. لم تراع كل هذا، ووقـفت مع زمـيلك في محنته..

- استاذي لا تقل هذا.. فكلنا أهل وأبناء عشـيرة واحدة.. من ها الخليج حتى المحيط الآطلسي.

***

أعلنت الحرب على العدو الصهيوني وأسقطنا أربعين طائرة في غارة جوية واحدة. . أبشروا ياإخواني. . واذكروا دائما يوم الخامس من حزيران. .

نظر الجميع إلى "ياسين الحمد" وهو يصيح ويهنئ محمود المنزلاوي وأعضاء لجنة امتحان الشهادة المتوسطة. .

كاد الزمام يفلت من أيدي اللجنة. . واختلطت الأمور بعد انتشار هذا الخبر المفاجئ. . ولايدري أحد كيف جاءت أجهزة الراديو إلى داخل اللجان. . إلى أن اضطرت اللجنة إلى جمعها من الطلاب والمدرسين بعد أن تأخر توزيع الأسئلة لبضع دقائق. . كان الأمر في الحسبان، ولكن قرار الحرب ليس أمراً سهلاً. .

كانت النفوس مهيئة للحدث الخطير. . بل كل من كان على هذه المساحة الممتدة -من الخليج الثائر إلى المحيط الهادر- بات يحلم بما حدث لتخليص الأمة العربية من هذا العدوان الجاثم على صدرها. . .

وكانت الكويت رغم بعدها عن قلب الأحداث إلا أن العين الفاحصة لاتنكر أنها كانت تنبض وتنتفض وكأنها قلب الأحداث. . والمعركة على حدودها.

كان الطلاب والأساتذة يخرجون من لجان الامتحان، ويهرعون إلى سياراتهم لسماع آخر البلاغات الحربية بعد أن طُلِب منهم عدم حمل أجهزة الراديو داخل اللجان حفظاً للنظام. .

ورسم بعض المدرسين الخرائط لمواقع الجبهات التي يدور عليها القتال. . يحددون عليها تقدم القوات والأماكن التي وصلوا إليها. . وبعضهم توقع وصول القوات العربية إلى تل أبيب في غضون أيام. . وآخرون تنبأوا هذا في خلال ساعات. .

وتحولت المؤسسات الحكومية إلى منتديات لمتابعة أخبار الحرب الدائرة في قلب الوطن العربي. .

وتكونت لجان لمؤازرة المجهـود الحربي في كل مجال، وضرب التجـار بسهم وافر في هذا المجال ففاقت تبرعاتهم كل التوقعات باندفاع ذاتي دون مناشدة أو دعوة..

وأعلن الموظفون عن رغبتهم في المساهمة في اقتطاع نسبة من معاشاتهم (رواتبهم) للمجهود الحربي.

كما أعلن العاملون في مجال الاستيراد من التجار امتناعهم عن استيراد بضائع من الدول أو الشركات التي تتعاون مع العدو..

وتكونت اللجـان النسـائية لجـمع تبرعـات، وتبـرعن بالمال والحلي.. وعُقـدت الندوات والاجتماعات لإبداء استعدادهن للتطوع لخدمة المجهود الحربي.

وفُتحت المستشفيات لاستـقبال الحالات القادمة من الميدان.. وسخّرت الدولة كل إمكاناتها لهذا الغرض النبيل..

وأخذ الجميع يتوقعون النصر بين يوم وآخر تتويجاً لهذه الحرب التي دخلها العرب وهم يتوقعون أنهـا الجولة الأخيرة في هذه المأساة الدامية التي استـمرت عشرات السنين وفقد قطر عربي هويته.. وخرج أغلب أبنائـه لاجئين يطلبون الحياة والعيش الكريم في ظل إخوانهم وأشـقائهم في العـروبة.. واستضـافت الكويت أكثـر من عدد مواطنيـها منهم.. رغـبة في نصـرة الأخ المظلوم، وأخذاً بـيد الشـقيق المشـرد بعيـداً عن وطنه، وأفسحت صدرها لهم كأبنائها وجاءت الفـرصة ليعودوا.. وكم تكون الفرحة أن ينتصر أخوك المظلوم، ويعود إلى دياره وربوعه، وتشد على يده مهنئاً..

وقد جاءت الهزيمة في هذه الحرب لطمة قاسية.. فما أصعب الفشل بعد الأمل، والسقوط من حالق في بئر بعيدة الغور.. عاش المواطنون والمقيمون في الكويت والعرب جميعاً بعد انحسار اللثام عن وجه الحقيقة أسوأ أيامهم.. ذاهلون حيارى.. ترى الدمع وقد تحجر في مآقيهم، وانطوت قسمات وجوههم على حزن دفين، وألم مرير..

وقـامت المظاهرات في مدينـة الكويت تعبـر عن رفضـهـا للهزيمة، وباتوا أمـام السفـارات التي خاضت دولهـا المعركـة يطالبون بالاستمرار في الحـرب. . وأنهم على استعداد للتضحية بأنفسهم وبما يملكون.

وانتزع محمود المنزلاوي نـفسه من العزلة التي فرضها على نفسـه احتجاجاً على ماحدث، وعلى عجزه عن أن يقدم شيئاً. . وقرر أن يذهب إلى نفس المكان الذي يناجي فيه غروب الشمـس أمام ثانوية الشويخ. . لعلها تعطيه نفحة من صـبر، أو شعاعا من أمل. .

وهناك وجد زمـيله حامـد الجوهري قد سـبقـه إلى المكان ووقف خارج سـيارته يبكي. . وقـد دفن وجهه بـين يديه على سطح السيـارة. . وتلاقت النظرات. . وتوقف اللسان؛ فما فائدة الكلام. . وماذا يقال بعد أن حدث ما حدث!!

وينظران معا إلى سيارتين تقفان على مسافـة منهما، وكأنهما أدركا من بداخلهما فقالا في صوت واحد متعجبين:

- وكيل الوزارة. . أبو مرزوق!! وكذلك فيصل الثنيان!!

فيقول حامد الجوهري في صوت بعيد الغور:

- حالهما كحالنا. . جاءا يبكيان حظ العرب التعيس. .

وبعـدها جـاءت حرب ثلاثة وسـبـعون بـعد ست سنوات مـن الحزن والهـوان والإحباط، وشعـور بالمرارة لم يعرفه العرب مَنذ هزيمتهم على أيدي التـتار في بغداد. . كانت حرب أكتوبر مفاجـأة. . أخذت العرب والعدو على غرة. . هكذا يكون التخطيط والتدبير، وإن ظلت الجـماهير العربية ليوم كامل لا تصـدق حجم الإنجاز الذي تم على ساحة القتال. . حتى تناقلت الأخبار والأنباء العـالمية جميع ما حدث، ووصفته بأنه من معـجزات الحروب وأشادت بتـفوق المقاتل العـربي متى ملك السلاح المناسب والقـيادة

الواعية.. كما نوهت بالتكتيك المبتكر، وخداع أجهزة الإنذار، وطائرات الاستطلاع التي كانت ترصد تحـركاتها، وبالأداء المتناسق بين الأسلحة المخـتلفة.. وتحطيم الخطوط التي تحصن بها العدو والتي تحولت إلى مصايد، وكأنهم جرذان وقعوا في فخ كبير...

وكم كانت سعادة شـعب الكويت بهذه الانتصارات وتحولت عاصمـته إلى ساحة عرس كبير.. وخرج الناس فيها وفي ضواحيها في مسيرات حاشدة ضمت الناس جميعاً من كل قطر عـربي تعـبر عن فـرحـتهـا.. النسـاء قبل الرجـال والأطفـال والشبـاب والشيب... عاشوا جميعاً في عرس دائم لأسابيع.. في منظومة عربية سعيدة.

ولكن هل تتيح القوى التي تتـحكم في عالمنا المعاصر أن نتجـاوز أقدارنا ونصبح قوة ثالثة ونقضي على إسرائيل؟.. لابد من تحجيم أية قوة تظهر هنا أو في أي مكان في العالم.. فلسفة يعـتنقها الكبار دائماً وأنانية تتحكم في الإنسـان العادي منذ وجوده قبل أن تتحكم في الدول؛ فالإنسـان لم يستطع بعد أن يتخطى هذا الحـاجز النفسي، بل إنه سخر كل مـايملك من قدرات لتقوية هذا الحاجز المقـيت حتى اللون والدين والمكان التي لادخل للأنسان فيه جعل منها جـدراناً لتفصل بين الإنسان والإنسان.. هذا جنس وهذا جنس أرقى.. وذلك مكان في الشمال في أعلـى مرتبة، وذلك مكان في الجنوب يجب أن يوضع في أسفل مرتبة، ويكون ناسه والبهائم سواء بسواء..

ولم يدرك العرب الفرصة الـسانحة ليجلسوا علي مقاعـد الصلح التي أعدت بعد هذا الانتصـار المباغت الذي أذهل العـالم.. وظل بعضهم يزايـد كما هي العـادة حتى بردت نار الهـزيمة لدى إسرائيل.. فـأخذت تراوغ من جـديد.. ولكن البعض أدركـها فانتـهز الفرصـة واستعـاد ترابه.. فاهتـبال الفرصـة ذكاء.. و من بعد الـنظر أن تنفذ الشعوب إليـها ولو من ثقب إبرة.. فالحـرب دائماً طرفاها خاسران غـالب ومغلوب.. فالانتـصار لايأتي إلا على جـماجم الشـباب، وأمـوال تذروها رياح المدافع والقنابل.. وأرض موات محروقة عند المنتصر كما هي عند المهزوم..

* * *

ألحت الذكـريات على رعيل ثانوية الشـويخ أن يجددوا الـذكرى وأن يسـتعـيدوا سهراتهم خلف جدرانها العريقة، وأرباضـها الهانئة الغارقة في الهدوء، وبين عطر الزهر ونسـمات الخليج.. وكـما يسـبي الجمـال في الإنسـان، فإن سـحر المكان له عـشاقـه ومريدوه...

- لماذا لانقضي ليلة هانئة كليالينا الماضية؟

ويتابع كاظم السامرائي:

- أو كليالي ألف ليلة وليلة...

ويضحك معاوية السوري:

- لله دركم يانشامى.. إنها فكرة صافية وعذبة كأنها من نبع بردى..

ويحتج السامرائي قائلاً:

- ولماذا لاتكون من نبع دجلة ياأخي؟!

- من نبع دجلة وبردى والفرات واليرموك والنيل معـاً... مبسوط يا ابن الخال والعم؟ نذهب إلى ثانوية الشويخ الحبيبة لنستعيد ذكرياتنا في ناديها الساحر!!

ويهز كاظم السامرائي رأسه موافقاً..

ويدخل الجوهري وفـيصل الثنيان و محـمود المنزلاوي، وعندما يعرضـون عليهم الفكرة يقول فيصل الثنيان وقد أشرق وجهه، وهو يستدير راقصاً:

- والله جينالك ياالحبيبة جينالك.. ومن طول بعادك عيني ماترى النوم..

ويتابع في سعادة:

- أتدرون ياشباب.. أكون مخـطئاً إذا لم أصارحكم بما في قلبي.. أنا ماأحب

أن أقول: إنني أحقد على من احتلوا مكاننا من أساتذة الجامعة.. ولكني أقول إنني أحسدهم على أنهم يعيشون بين ربوع معشوقتي ثانوية الشويخ وكل من ضمتهم جوانحها الرقيقة الحانية، وكأنها وهم ليلى وقيس.

ويرفع الجوهري ذراعه قائلا:

- لاتحاول الشعر.. ولاتتغزل فيها فهذه لعبتي وفني، واقصر جهدك على خرائط الجغرافيا، والرياح والزوابع والطوز، والتاريخ القديم والحديث!

ويتدخل المنزلاوي:

- لاتتهاوشا ياشباب، ودعونا نفكر ونحسب حسبتها، ومن سندعو..

ويقول فيصل الثنيان:

- إنك لن تهرب من الملامة.. فما من أحد بالكويت تلقى العلم بها إلا ويود أن يكون أول المدعوين.. فكل واحد منهم آدم دخل جنتها ويكى يوم خروجه منها..

وتعجب الداعون إلى الحفل من تأجيله لمدة أسبوع وقال فيصل الثنيان لهم وقد أجتمعوا في مقهى أبراج الكويت:

- أنا حتى الآن ياجماعة لاأفهم سبب تأجيل هذا الحفل؟!

أما محمود المنزلاوي فكان يعزو تأخيره لأن وكيل الوزارة والوكلاء المساعدين والوزير لديهم ارتباطات سابقة.. وقد دعوناهم إلى الحفل، وربما يريدون الحضور.

أما معاوية الحموي فقال ضاحكاً:

- أرجو ألا يتأخر أسبوعاً آخر.. فقد كان صاحب المطعم الذي تعهد بتجهيز الطعام منزعجاً للتأجيل أكثر منا..

- ولماذا لاينزعج . . إنه تاجر شاطر. . حفل كهـذا مكسبه منه لايقل عن مائتي دينار أو أكثر. . سـوري عبقري. . مـعاوية. . السوريون أذكى تجار في العـالم والأمثال المتداولة تدل على أنهم تفوقوا على اليهود في هذا المجال. .

- إن الأشطر منهم الدمـايطة أخوالك ياجوهري. . لقـد تفوقـوا على السوريين ياصاحبي. .

ويضحك الثنيان قائلاً:

- إن الدمـايطة أيها الجـهلة أغلبـهم مـهاجـرون من سـوريا. . اقرأوا التـاريخ ياسادة. .

وينتحي محمود المنزلاوي بحامـد الجوهري ويسأله عن موضوع لبنى. . وماذا تم بينه وبين وكيل الوزارة فيخبره بكل ماحدث فيقول المنزلاوي:

- إنه أمر لايطمئن ياحامد. . هل كان من الضروري أن ترسل لها القصيدة يابني آدم؟!

- كيف أحب وردة نضـرة مثلهـا. . ولاتعرف مقـدار إعجابي بهـا. . أو روعة جمالها. . لقد صعقني جمالهـا ورقتها ولاقدرة لي على حبس هذه المشاعر، وإلا كنت كائناً متحجراً!!

- قل مـاشئت. . وتـغزل ليل نهـار، ولكن لاترسل إليـهـا، أنا رأيي ليس في صالحك. .

ثم يستأنف حديثه بعد صمت:

- ولكن قد يشفع لك ويقـدر أحاسيسك وكيل الوزارة، فأبو مـرزوق كما تعلم شاعر. . وعلمت أنه أخذ رأي أبو جاسم وكيل وزارة الإعلام وهو شاعر أيضاً. . و. .

ويقاطعهم حامد في جرأة:

- لاتشغل بالك ياأخي.. أنا لست جباناً.. ولم تكن لي قدرة على حبس أحاسيسي وعواطفي.. وأنا أترك أمري للمقادير.. وكما قيل: دع المقادير تجري في أعنتها..

وقبل الحفل بيومين اختفى حامد الجوهري تماماً، بحث عنه المنزلاوي والثنيان والسامرائي في كل مكان ولم يعثروا له على أثر.. وشاعت قصة غزله والتحقيق معه.. وألقت سحباً داكنة على جو الحفل المقبل لدرجة أنهم قرروا إلغاءه.. فقد ظن الجميع أن الجوهري قد أُنهِيَ عقده وسافر إلى دبي أو القاهرة لا أحد يدري.. وقويت هذه الشائعة حتى أنهم اجتمعوا وقرروا أن يذهب وفد منهم إلى وكيل الوزارة لإلغاء الحفل.. ولكنه أصر على إقامة الحفل في مكانه وزمانه وسأل:

- لماذا الإلغاء بعد الإلحاح الشديد والرجاء الكثير لإقامته؟. ثم إنني دعوت بعض من يسعدهم هذا الحفل في ربوع شبابهم، وموطن ثقافتهم، وهم شخصيات بارزة في المجال الثقافي والإجتماعي.. فماذا أقول لهم؟ فهل هناك تفسير لهذا؟!

ويرتبك فيصل الثنيان ويقول:

- لا شيء.. لا شيء.. ولكن..

- تكلم يا فيصل.. هناك شيء تود أن تقوله.. تكلم..

- أنا يا أبو مرزوق لا أريد أن أتدخل في شئون الوزارة ولكننا لن نكون في وضعنا الطبيعي بغياب زميلنا الجوهري.

ويبتسم الوكيل وهو يقول:

- وماذا حدث للجوهري؟ هل أصابه مكروه؟

ويزداد ارتباك فيصل.. فيقول مترددا:

- يشيعون أن الوزارة قد أنهت عقده بسبب قصيدة..

ثم يستدير للوكيل محرجا:

- سيادتك تعرف أكثر مني..

- وماذا في ذلك؟ ألم تسمع المثل القائل: البلاء موكل المنطق.. وإذا كان قد حدث له شيء فهذا ما جناه على نفسه..

- لقد كنا نعتمد عليه.. فهو نجم هذه الحفلات كما تعرف..

- نجم.. إن سماءنا ملأى بالنجوم!!

ثم يبتسم الوكيل في حنو ويقول في هدوء:

- انصرفوا إلى حفلكم.. وسوف يكون حفلا رائعا بإذن الله..

وسيطرت الكآبة على الحفل.. وتحول إلى شبه حفل رسمي في انتظار الوكيل وضيوفه..

ولكن فوجئ الجميع بسيارة تتوقف أمام النادي.. ينزل منها عروسان في ثياب الفرح.. ولم تصدق عيونهم أن الذي أمامهم كان الجوهري بشحمه ولحمه.. وعروسه الجميلة.. هل هي فاتنته صاحبه القصيدة؟ فيقول معاوية الحموي بينما يصفق الجميع:

- أهي؟ أم صاحبة قصيدة أخرى؟

ويضحك الجوهري سعيدا وهو يجلس في صدارة المكان مع عروسه.. ويقول:

- إنها هي.. ولا أحد سواها!!

ويقول فيصل الثنيان مهنئا ومرحبا:

- ومن جمع الشامي على المغربي.. كما في المثل!!

فيجيبه كاظم السامرائي:

- أبو مرزوق الشاعر.. والكويت العزيز!!

وسرعان ما تحـول الحفل إلى رقصات تقليدية من جـميع أقطار الوطن العربي.. رقصـة السيف، الدبكة، التحطيب.. وكـانت ليلة ظلت ذكرى جمـيلة.. وبعدها طار الجـوهري وعروسـه إلى دبي حيـث قضـوا أسبـوعين من شهـر العـسل هناك بين أهله وأقربائه.. وجاءا بذكريات سعيدة..

***

صباح الخير أستاذي.. لقد حضرت إلى القاهرة لأشارك في مؤتمر طبي.. فقلت هذي فرصة لأسمع صوتك.. كل معارفك بالديرة يحيونك.. ويدعون لك بالصحة.

- بارك الله فيك يا أبو مبارك، أصيل، وفيك الخير، وأنتم جميعا في الكويت أحبابي.. تفضل يا ابني.. أحب أن أراك قبل أن تغادر.. فرؤيتك تسعدني.. يا دكتور..

وفي المساء جاء الدكتور مشاري البحر يزور أستاذه، وما كاد يراه في سريره حتى قال منزعجا:

- سلامتك أستاذي.. ماذا أصابك؟ هل تشكو من شيء؟

- تعرف يا أبو مبارك.. من يوم أن عدت من الكويت، لم تستقم صحتي.. ولا أدري لماذا!

- سلامتك.. لقد ودعتنا من ستة شهور فقط.. وكنت فِ صحة جيدة على ما يبدو..

- كان وقتها عندي مقدمات تعب في الكبد.. ولكن ازداد تعبي بعدها.. وأنا أتردد على دكتور شهير هنا الآن..

أخرج الدكتور مشاري أجهزة كانت معه في حقيبته وأخذ يفحصه ثم قال في حنو:

- أستاذي ضغطك مرتفع، ويحتاج إلى تنظيم، أما مسألة الكبد فأنا لست مختصا فيه.. ولكن سيزورنا في الكويت إخصائي عالمي فرنسي.. فما رأيك لو جئت وعرضت نفسك عليه.. فربما يتم على يديه الشفاء..

- أشكرك يا أبو مبارك.. وسأفكر في الأمر..

- أستاذي أنا لا أقدم لك معروفا. . وإنما هو واجب التلميذ نحو أستاذه. . .

وبعد أن انصرف الدكتور مشاري قالت له زوجته:

- هل تنوي أن تعمل بمشورة أبو مبارك يا عثمان؟

- لا أظن. . فالظروف قد تغيرت، فقد تركت الخدمة بعد بلوغي الستين. . فكيف أتطفل عليهم. . وأحملهم تكاليف علاجي. . ثم إنني أعالج على يد طبيب كفء. . والأعمار بيد الله.

وحاول محمود المنزلاوي أن يثنيه عن موقفه، ولكنه رفض قائلا:

- لا أستطيع يا محمود قبول كل هذا. . فمن قابلك بالمعروف وجب عليك أن تقابله بالتعفف والقناعة.

- إن الناس هنا يقدرون إخلاصك في عملك طول مدة وجودك بينهم. . وتلاميذك هنا. . امتداد لعملك وجهودك مدرسا وناظرا وموجها. .

وتدخل فيصل الثنيان في المكالمة على أمل اقناعه بقبول الفكرة. . ولكنه أصر على الرفض. . حتى اتصل به في اليوم التالي، وأكد له بأنه سيضطر إلى السفر إلى القاهرة لاصطحابه، ورجاه أن لايرفض رجاءهم. .

ولما وصل الأستاذ عثمان منصور إلى مطار الكويت كانت هناك في انتظاره مجموعة من زملائه وتلاميذه. . وصحبوه إلى مستشفى الصباح. .

كانت عناية المستشفى بالرجل فائقة. . ونشرت الصحف بعضا من أخبار الرجل، وعودته للعلاج على أرض الكويت التي أحبها. . وأفنى زهرة شبابه معلما قديرا مخلصا أمينا محبوبا من الجميع. . وتوافد عليه معارفه وأصدقاؤه ومحبوه من أبناء الوطن العربي من المغرب حتى الخليج العربي وصارت غرفته بالمستشفى منتدى لهم . .

وأقام الدكتور مشاري بالمستشفى إقامة شبه دائمة ليكون مع أستاذه.. وأجرى له جميع الفحوصات اللازمة انتظارا لقدوم الطبيب الفرنسي..

وفي الليلة السابقة لحضور الطبيب الزائر خلا المكان ولم يبق معه إلا الدكتور مشاري فقال:

- يا دكتور.. لا ترهق نفسك هكذا معي، حتى لا تجعلني ألوم نفسي، فأنا لا أود أن أرهق من أحب..

ونفى مشاري أنه مرهق، وأن كل ما يؤلمه هو رؤيته له وهو مريض، وكان يتمنى أن يراه في أتم صحة وعافية.

فقال الرجل وهو يغالب ألمه:

- كم كنت أود أن أراكم وأنا في صحة وعافية.. ولكنها الظروف، على كل حال.. لقد تركت مكتوبا في هذا الدرج، هو وصيتي أرجو أن تقوم بتنفيذها حتى تريحني بعد أن أرحل.. فأنت تعرف أنني لم أنجب.. ولكنني أعتبرك ابني. بل كل من تعلم على يدي ابن لي.. وأنت أعزهم.. وصيتك أن تفتح هذا المكتوب، وتنفذ ما فيه حرفيا.. حتى لو اعترضت زوجتي، وأشد الناس قرابة لي..

وتطفر الدموع من عيني مشاري.. ويقول متأثرا:

- سلامتك يا أستاذي.. لماذا تقول مثل هذا الكلام؟

ويقاطعه الرجل قائلا في وهن:

- أنت تعرف قبل غيرك أنه لا فائدة ترجى من كل هذا ولكنك تبذل أقصى ما تستطيع.. أليس كذلك؟!

وجاء الطبيب، وكانت حالة الأستاذ عثمان منصور الأولى فيما عرض عليه..

واضطر أمام إلحاح وإهتمام الدكتور مشاري أن يجري تحاليل جديدة وفحوصات وأشعة لكل ما في جسمه من سوائل وأعضاء.. ولكن النتائج جائت سلبية وأن الأمل في إنقاذ حياته واه... وأدرك الرجل بذكائه الذي لم يفارقه الأمر.. فازداد مرحا.. وطلب أن يسمع الموسيقى والأغاني، وطلب أشرطة لأغاني عبد الوهاب وأم كلثوم وغريد الشاطئ وشادي الخليج.

وعندما حانت الساعة، طلب محمود المنزلاوي وقال له:

- يا محمود أنت بمثابه أخ لي.. ومشاري بمثابة إبني.. إنني لا أرجو منكما سوى أن تتعاونا على تنفيذ وصيتي.

وقال لهما .. إنها وصية ذات رغبة واحدة.. وطلب منهما أن يذهبا ليستريحا في منزلهما، فهو يريد أن ينام هذه الليلة نوما عميقا..

وخرجا بعد إصراره، وفي الصباح عادا مبكرين ولكنهما وجداه جثة هامدة...

وامتدت يد مشاري إلى المظروف الذي تركه وقرأ وصيته.. وهي أن يدفن في ثرى الكويت في مقبرة الصليبيخات، قريبا من ثانوية الشويخ التي قضى زهرة شبابه معلما بها...

***

كان عائدا من لجنة امتحان الثانوية العـامة مرهقا من العمل ومن حرارة الجو حتى أنه تناول نصف غذائه المعتاد وهرع إلى السرير، وما كـاد يغفو حتى دق جرس الهاتف، كان المتحدث أحد أساتذة الفلسفة.. أخبـره أنهم إستغنوا عن خدماته، وظهر إسمه في كشوف من انتهت عقودهم، وطلبوه في الوزارة لهذا الأمر..

وكان وقع الخـبر على محمـود المنزلاوي شديدا ومؤلما، فهـو يعرف ظروف هذا المدرس، فقد كان مثالا للجد والاجتهاد والتفاني.. بالإضافة إلى أنه مدرس نادر المثال في فنه وثقـافتـه.. ولكنه عود نفـسه أن لا يطـلب لذاته شيـئا من مـسئـول أعلى منه منصبا.. فهل يطلب لغيره؟ ومـا ردود الفعل؟! وهل يكون مقصرا في حق هذا الإنسان الذي ظن أنه يستطيع أن يمد له حـبل الإنقاذ وهو في هذه الأزمة التي فاجـأته على غير انتظار؟! ألا يكون مقصرا أيضـا لو ترك هذا المدرس بقدراته يمضي، ويحرم الطلاب من أمثاله؟ إن المدرس الذي يفهم واجبه، وينمي نفسه باستـمرار ثروة قومية لأمته العربية.. فهل يـلوذ بالصمت أم ينبـه المسئـولين إلى مراجـعة الأمر بشـأنه؟ إنها بلا شـك أمانة العمل، ولا أظن أنهم سيشكون للـحظة أنه يحاول أن يتسلق ثقتهم فى مصلحـة إقليميه أو شخصية.

ولكن وكيل الوزارة الجديد ليست له علاقة وثيـقة به كسابقه الذي كانت تربطه به زمالة منذ أن كان مدرسا معه.. واقتصرت علاقته بالوكيل الحالي على اللقاءات الرسمية أو العابرة أو أثناء زيارته للـمدرسة.. وهذا السبب الأخـير كان يشـده للتراجع، ولكن رجح كفة الإقدام على عمل ما لنصرة هذا المدرس أن له زوجة تعمل في حقل التدريس أيضا، فهي حجة مقنعة لإعادة النظر في قرار إنهاء تعاقد المدرس.. فشهامة العرب تأبى التفريق بين زوجين وأطفال..

هل يكتب للوكـيل، أم يذهب إليه ليـشرح الأمـر؟ واستـبعـد المشافهـة في هذا

الموضوع.. إذ لا بد من شرح الجوانب الإنسانية في القضية.. وإذا كتب هل يكتب في كتاب رسمي أم كتاب أدبي حتى لا ينسى النواحي الإنسانية والعاطفية..

وغالبه النوم.. لكنه قام قبل الفجر بقليل مفزعا، فهو لم ينه الأمر، ولم يجب على استغاثة المدرس.. لابد أن يحسم الموضوع هذا الصباح.. وأمسك قلمه، وخط كتابا حاول أن ينقل فيه مشاعر هذا الإنسان وظروفه وقدراته، وأن هذا القرار قد مزق شمل الأسرة..

وقام من فوره في غبش الصباح، وانطلق إلى منزل سكرتير المدرسة، الذي أصابته الدهشة لحضوره في مثل هذا الوقت، وفي طلوع الشمس كان في الوزارة.. والكتاب بين يدي الوكيل.. طالع الوكيل الكتاب سريعا ثم أسفر وجهه عن ابتسامة مشرقة وقال في لهجة ودودة :

- إن شاء الله يصير خير...

وأدرك المنزلاوي بحسه الدقيق أن الكتاب قد لاقى قبولا لدى الوكيل.. إنه عربي يقدر الكلمة الأدبية الرقيقة، فالأدب زاد العرب منذ قديم الزمان وموطن حكمتهم، وطريق معبد للوصول إلي أعماقهم، وينفحهم السعادة والرضا..

وفي صباح اليوم التالي أعاد الوكيل بحث حالة المدرس وجميع الحالات المماثلة.

وتعجب الكثير مما حدث.. كيف ترجع الوزارة في قرارها وتعيد من استغنت عن خدماتهم بمثل هذه السرعة.. لأنهم لم يعرفوا أن الأدب بلسم القلب العربي، والسلم الذي يصعدون به إلى أجواز الفضاء.. والنفق الذي يغوصون فيه إلى أعماق المحيط..

***

كان الاتفاق بين الثلاثة محمود المنزلاوي، وعوني النفيسي وحامد الجوهري على أن يسافروا بطريق البـر بدلا من الطائرة توفيرا ومتعة.. يقطعـون خلالها بعض الأقطار العربية.. سياحة وتعرف على بلاد شقيقة، واتفقوا على أن لا يسرعوا فماذا يضيرهم لو بقـوا في بغـداد أيامـا، المدينة الـعـريقـة التي تغني بهـا الشـعـراء.. وسـمـعـوا عن السمك "المسجوف" وطعـمه اللذيذ من كاظم السامرائي وكل من مر بالعـراق وعاصمة الرشيد!! وعَمّان بلد الجبال السبعة وفندق الأردن الشهير وثمارها، ولحم الضأن الشهي، الذي غذته مراعيها الشاسعة!!

أما دمشق وغوطتها و"بوظتها " الدسمة التي تذيب لهيب الصحراء، فقد حدثهم عنها زميلهم معاوية!! وخاتمة المطاف لبنان بجبالها ومروجها وفنادقها ولياليها الساحرة.. ومرابعـها الشهيـرة؛ زحلة وعاليه.!! والابحار مـن ميناء بيروت حتى الإسكندرية عـبر البحـر الأبيض المتوسط.. وقـضاء الإجازة فـي رأس البَرّ كمـا اقترح الجـوهري على المنزلاوي أما عوني فله عالم آخر في سوريا..

وانطلقت السيارات الثلاث عبر الصحراء الملتـهبة وكانت أول صخرة ارتطموا بها معامـلة أول مكتب للجوازات على الحدود المجاورة مـباشرة -في صفـوان- في العراق والتـفتـيش المتعنت، لكـل مايحـملونه من متـاع ولا يمكن أن تكون هذه المعـاملة التي تعرضوا لها فلسفـة حكم أو شعب، ولكنها اجتهاد موظفين فعنـدما تتوتر العلاقات بين قطر وقطر فإن هذا التوتر يصل بسرعة إلى الموظفين الصـغار، وخاصة من كان منهم في مجـال الخدمـات فيتـحولون إلى نمور وأسود.. فـيلقي أبناء القطر الآخـر إذا كان لهم مصلحة ما، أو حتى مـجرد مرور بالديار، أسوأ معاملة، وعندما يتباوس الزعـماء تتغير المعاملة بين رعيتهما..

فلماذا تفقد الشعـوب العربية أصالتها، وتتنكر لتراثها العـريق بهذه السهولة وهي التي اشتـهرت بالكرم ونصرة الغـريب.. والأخذ بيد الضـعيف والمظلوم!! ظلت هذه

الأسئلة الحائرة التي لا تجد جوابا مقنعا بين الزملاء الثلاثة.. وأحسوا أنهم يقطعون أرضا لا ترحب بهم، ولا تبتسم لهم.. لماذا؟ اللغة واحدة، التراث العريق يجري في أوصالهم.. والإيمان بضرورة التكاتف والتآزر لبناء مستقبل مشرق.. وإلا فالضياع.. إذن لم كل هذا الإهمال والتجاهل وقطع حبال المودة بهذه الصورة الكئيبة.. وتغليف كل أمر بالجفاف والبرود؟! هذه هي الصورة الرسمية التي قابلتهم.. أما الصورة الشعبية فكانت أفضل بكثير!!

هل ينكصون على أعقابهم.. أم يستمرون إلى غايتهم.. كان المنزلاوي أول المقترحين للعودة.. ثار حامد الجوهري في وجهه، ووصف اقتراحه بأنه دعوة للهزيمة، وهروب من الحلبة.. فإذا كانت السلطة تود هذا، فإننا شعب واحد ويجب أن نؤكد هذا، ونصر عليه.. وهاج وماج وارتجل أشعارا، وضحك عوني وظل صامتا ولم يعلق بشيء.

واستمرت الرحلة، وآنستهم أناقة فندق "الرمادى"، والمعاملة الطيبة من متعهدة الفندق.. كانت ليلة حافلة أنستهم مشقة الرحلة.. ولهيب الشمس في الصحراء التي بدت لهم متجهمة وقاسية.. وظهرت الإستراحة كواحة هانئة وسط هذا اللون الأصفر المترامي على امتداد البصر وبدت صاحبتها بجمالها ورقتها كنخلة من نخيل البارحي اللذيذ الشهير بالعراق مما أهاج شاعرية الجوهري فانطلق في قصيدة رائعة يصف فيها المكان وصاحبته وكأنها حورية هبطت من الخلد في لحظة من لحظات انفتاح السماء على الأرض، مما أثار لبنى وأزعجها، فصرحت بأنها أخطأت بزواجها من مجنون لا يرى امرأة جميلة إلا وينطلق خلفها بموسيقاه ومزاميره.. كل هذا والجوهري سادر في غيه، وصاحبة الفندق سعيدة به وبما يقول وتحاول أن تستعرض جمالها وفتنتها بأسلوب ملفت، وغدت الإستراحة تضم غريمتين تتنافسان على الشاعر التائه.. وأصر الجوهري

على قضاء ثلاثة أيـام بالإستراحة بحجـة أنه متعب ولا يستطيع مواصـلة القيادة في هذا الجو الحار، ولـم يسلم من لسان لبنى التي اتهمـته بأنه زئر نساء، ولعابه يسـيل عندما يرى أية امرأه حتى ولو كانت عاطلة من الجمال.. وندبت حظها لأنها ارتبطت به..

وانطلقوا بعد الأيام الثلاثة، وأصرت صاحـبة الإستراحة على أن لا يغادروا قبل تناول إفطار فاخر أشرفت عليه بنفسهـا.. وكأنها تطلق آخر سهم في حوزتها على لبنى وقالت لها ضاحكة:

- إسمعي يا مدام.. أنا على استعـداد لدفع خلو مهما كان لو تنازلت عن هذا الجوهري..

ثم تطلق ضحكة دافئة وتتابع:

- إنه جوهري حقا، يصوغ الدر كأعظم صائغ، إنه عمر بن أبي ربيعة في ثوب جديد .

وبعد أن يغادروا تقول لبنى في صوت سمعه الجميع:

- عليك اللعنة و على عمر بن أبي ربيعة.. ومن تشبه به .

ويبتلع الجوهري ما سمعه ضاحكا.. ويقول:

- ليس هناك غير لبنى واحدة.. هي دنياي، وجنتي الموعودة، وهي التي مزقت شـراعي بسهـام عينيـها لأبقى أسـيرا علـى أرض الكويت طول حيـاتي، وأنسى ربعي وأهلي.. آه من الحب يا قوم، إنه قدري مع لبنى العزيزة!!

وعندما وصلوا إلى استراحة "الإتش فور" في الأردن لم يكن في انتظارهـم امرأة جميلة كما في الرمادى بل كان رجلا صامتا لا يتكلم كثيرا حتى أن الجوهري هجاه في أبيات أظهـر فيهـا لوعته على الجـمال الممتلئ بالحـيوية، وأسف للقاء البـرود والصمت

والجفاف.. ولعن الأيام لأنها لا تبقي على الجمال ، بل تحاربه حتى يزوي أو تحيله إلى قبح أو ذكرى حتى قال:

- يبدو أن القبح في الدنيا أقوى من الجمال لأنه مصير كل شئ وأما الجمال فهو حالة مؤقتة أو طارئة، أو زائلة..

***

وكانت نقطة جوازات أخرى تسبق "عمان"، كان التفتيش سهلا وهينا.. ولكنهم سحبوا جواز عوني لمراجعته في عمان قبل الدخول.. الليل يزحف سريعا.. هل يمكن أن يترك الزميلان صاحبهما على قارعة الطريق ويمضيان!! مستحيل.. فامرأته حامل في أيامها الأخيرة.. شكت من الألم في استراحة" الرمادى ".. وقالت إنها ستضع مولودها في سوريا، فلها أقارب هناك.. فقالا لرجال الحدود في رجاء:

- يا جماعة أرحموا الرجل وزوجته..

لقد اسمعت إذ ناديت حيا.. لقد صموا آذانهم.. ولم يسمعوا الرجاء، فالتعليمات أهم من أي شيء..

وتتعالى صرخات المرأة المسكينة، وتنتقل زوجتا محمود المنزلاوي و حامد الجوهري إلى سيارة عوني النفيسي.. وتستغيثان.. المرأة في حالة وضع.. ماذا يفعلان.. جلس عوني قريباً من السيارة لايرى أحد ملامحه.. أيبكي أم يضحك؟ لازال في وعيه أم فقده.. بماذا تحدثه نفسه!!

اندفع محمود وحامد إلى الحاجز الملقى على الطريق، وأخذا يصيحان.. جاءهما الموظف بارداً هادئاً:

- ماذا تريدان؟ ألم أصرح لكما بالدخول؟

في صوت واحد يجيبان:

- ونترك عوني في عرض الطريق وزوجته في حالة وضع؟ هل أذنب لأنه فلسطيني؟! ماذا جنوا في حق البشرية.. حتى يعاملوا بهذه الطريقة الهمجية؟!

- خطة تريدان بها أن تدخلا صاحبكما إلى هنا قبل أن نتحقق من شخصيته.. إن اسمه فيه شبهة، فقد يكون من الممنوعين من الدخول.. فكيف أصرح له قبل أن تأتيني الموافقة من عمان.. هذه الحيل نفهمها جيدا..

- ولكن المرأة في حالة وضع!!

- ومن قال لك أنني قابلة؟

قالها ضاحكاً ساخراً..

وعادا يائسين؛ وافترشا الطريق كعوني دون كلام، وسمعوا بكاء طفل مولود، وانطلقت زغرودة في ظلام وكأنها سوط يلهب الظهور.. هل بقي شيء يسر بعد هذا الذي حدث!!

وأعقب هذا صراخ جديد، وكأنها ولادة جديدة أعقبها صوت المولود..

انطلق محمود المنزلاوي صوب سيارة عوني ليستطلع الأمر و حامد الجوهري إلى رجال الحدود يشتم ويسب من اخترع الحدود بين البشر..

وأخذ يردد: سحقاً لك أيها الإنسان، لقد تفوقت على الشيطان نفسه في الإيذاء والنذالة، إن الحيوان لايقتل لمجرد القتل.. ولكن الإنسان يفعل هذا، ولايضع القيود على حدود الغابة فهي ملك مشاع للضعيف والقوي.. ولكننا أمام حاجز لانستطيع تخطيه...

أخذ الجوهري ينادي وضاعت توسلاته وصرخاته في الهواء..

سمع زغرودة أخرى.. هرول نحو عوني.. لم يتحرك من مكانه.. اتجه إلى المنزلاوي الذي أتاه صوته عبر الظلام.. عرف أن هناك وليد ثان.. توم.. فلتفرح ياعوني بأولادك رغم ماحولك.. ولكن هل يمكن لبشر أن يسعد في موقف كهذا؟! ولماذا يأتي بآدميين ليس لهم حقوق الإنسان. فما سبب كل ما يحدث بيننا؟!

هل الإستعمار الذي قسمنا إلى شرائح، ومزقنا قصاصات وأشلاء.. وعمق ما بيننا من فواصل، بل وأقام الجدران بيننا، واستعدى بعضنا على بعض ليزرع الكراهية وهي نبات شيطاني لا يموت بسهولة!!

أم أن جهلنا وتخلفنا هذه القرون الطويلة أعادنا إلى عصور القبائل المتناحرة المتصارعة على كلأ أو شبر من الأرض يسكنه أبناء عمومة أو إخوة، وهل يضير إذا كان تابعا لهذا القطر أو ذاك.. ولكننا في عصر التجمعات الكبيرة نحاول التشرذم والتفرق.. أو اغتصاب المسالم قوة واقتدارا، أو الإستيلاء على ما في يده حتى ولو كان شحيحا..

بدت تباشير الصباح.. ولا زالوا على وضعهم الذي باتوا عليه.. وأخيرا وقف عوني وقد احمرت عيناه من السهر والإجهاد.. ومد يده مصافحا المنزلاوي ثم الجوهري وهو يقول في صوت مبحوح:

- سأعود ثانية.

- إلى أين؟

قالاها في صوت واحد..

- إلى الكويت، فهي أبر بي من غيرها.. وهل لي ملجأ سواها!!

وعلما منه أنه سيعود إلى استراحة "الإتش فور" ويستريح بها بضعة أيام حتى تسترد زوجته صحتها.. ثم يعود إلى الكويت..

وأصر المنزلاوي والجوهري على إصطحابه إلى "الإتش فور" ولم ير فائدة في إقناعهما بمواصلة السفر و تركه يعود وحده..

وعندما ودعاه عائدين قال له المنزلاوي وقد حاول أن يبتسم في وجهه:

- ربنا أنعم عليك بولد وبنت في هذه الأزمة ليخفف عنك قسوة البشر..

ويعقب الجوهري قائلا:

- اقترح عليك اسمين: حاجز، وعودة للوليدين..

ويهز عوني رأسه مؤمنا:

- أحسنت الاختيار يا جوهري..

* * *

بدا الطريق مملاً، والوجوه عابسة حتى وإن ابتسمت، ورغم جمال الطبيعة ورقتها في بلاد الشام وفي لـبنان بعد هذه الرحلة القـاسية.. إلا صـورة الليلة التي باتاها على حدود عمان.. وصورة عوني في حزنه وصمته، وصراخ الوليدين في ظلام الليل.. لم تفارق هذه الصور خيـالهما، كأنهما يرونها في الطعـام والشراب، وعلى الطريق وكأنها معلقة على حائط غير مرئي تطل عليهما باستمرار حتى في أحلامهما..

وفجـأة يقول محـمود المنزلاوي وهمـا يتناولان طعام الغـذاء وسط مروج زحلة وتمثال شوقي غير بعيد منهما، وخرير الماء العذب يملأ أسماع كل من يرتاد المكان:

- أنا لا أحس بأي بهـجة يا جـوهري رغم هذا الجو والمناظر الـساحرة.. لـقد أخذها عوني معه، وعاد إلى الكويت.

ويهز الجوهري رأسه موافقا، وكأن لسانه توقف عن الكلام. ويواصل المنزلاوي:

- لقد قررت العودة، فلن تهنأ لي الحياة حتى أعرف ما حدث لعوني وطفليه.. سأعود إلى الكويت من هنا.

ويصمت الجوهري وكأنه لم يسمع، فيقول المنزلاوي شبه محتج:

- مالك لا تتكلم يا أخي.. هل أصابك الخـرس! لقد قلت لك سأعود.. ولا ألومك إذا كنت تريد أن تزور والدتك.. فواصل رحلتك أما أنا..

- اسأل لبنى يا منزلاوي.. ولا تزعجني أكثـر من هذا، فلم تعد لدي مقاومة، ولا قدرة على الكلام.

ويفـهم من لبنى أنها مـضطرة للنزول إلى القـاهرة لعـرض نفسـها على طبـيب مشهور..

ويفهم محمود المنزلاوي ما تود أن تقولـه لبنى دون أن تصرح فقد مر عامان على زواجها من الجوهري، ولـم تظهر عليها بوادر الحمل..

ويفترق الزميلان أحدهما يتجه شرقا والثاني يتجه غربا، وكلاهما يحمل على كاهله تجربة مرة، وحقيقة مخجلة، وهي أن العرب لا تسعهم أرضهم، وإن وسعت كل الملل والأمم.

وعاد الجوهري ولبنى من رحلتهما العلاجية بالقاهرة يائسين فقد أخبرهما الطبيب إنه لابد من عملية لزرع الجنين في رحم الأم.. وأن هذه العملية تكاليفها باهظة.. ولا يقدر عليها سوى الأثرياء.. فضلا عن أنها لا تجري إلا على أيدي إخصائيين في لندن أو باريس أو الولايات المتحدة.. ويقول الجوهري ساخرا:

- عندما لا تطلب الأولاد يولدون على قارعة الطريق، وعندما يطلبون.. تذهب لتبحث عنهم في شوارع لندن وباريس وواشنطن ولكنك لا تجدهم بسهولة، وقد تدفع كفاح عمرك ولا تراهم.

ثم يتساءل:

- هل الأولاد ضرورة نجري وراءها في هذا الزمن الذي نسي الناس فيه عواطفهم وإنسانيتهم.. نأتي بهم ليتذوقوا جفاف الحياة، وقسوة البربرية الحديثة.. حيث تخرجك من دارك ومرابعك بقوة السلاح.. وتأخذ اللقمة من فمك لتعطيها لغيرك!! لقد أدرك المعري هذا في زمن كان أقل قسوة من هذا الزمن الذي نعيشه.. فأضرب عن الزواج والإنجاب، وقال: هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد!!

ويقول له عوني باسما:

- أنا أعرف أنك تعنيني.. ولكن الأبناء زهور هذه الحياة وأنت أيها الشاعر طالما رددت هذا، وسمعته منك، ولكنك واقع تحت تأثير الظروف التي مررت بها منذ سنوات، وإلحاح حبيبتك لبنى.. وضيق ذات اليد.. فيدك مبسوطة وخالية دائما، فقد تغيرت طبيعتك منذ أن تزوجت لبنى.. أليس كذلك؟

ويصمت الجوهري، ثم يهز رأسه موافقا.. فيقول المنزلاوي:

- كما سمعت.. والعهـدة على الراوي، أن الكويت لها مركز طبي موجود في لندن.. ويقدم المساعـدة الطبية لأبناء الكويت وكل من يعيش عـلى الأرض الكويتية من العرب وأبناء مـجلس التعاون الـعربي في المقدمـة، وهناك مساهمـات من شخصـيات وبعض الوزارات لكي يقوم هذا المركز بأداء واجبه للقادرين وغيرهـم..

وما على طالب المساعدة الطبيـة إلا أن يحصل على تقرير طبي من وزارة الصحة بأن علاج الحـالة ليس موجودا هـنا.. وعندئذ يصبح الطريق ممهـدا إليه.. وحظك في رجليك كما يقول المثل...

***

وطارت لبنى من الفـرح عندما فرغ الأطبـاء من التقـرير، وعاد حامـد الجوهري بتذكرتي السفر.. إنها تقترب من آمالها وأحـلامها وكان في وداعهم جميع زملاء حامد الجوهري ومن بقي من أعضـاء هيئة تدريس ثانوية الشويخ.. وباقـة من الأدباء ومحبي فنه وأسلوبه وتلاميذه..

ومـا كاد يصل إلـى لندن حتى تـرك لبنى في " الأوتيل " وانطلق يبـحث عن حديقة "هايد بارك"

إنه يريد أن يرى الحرية ويلمسـها، ولو على ظهر أرض غير أرضـه، وأناس غير ناسه.. إن الحرية في نظره كالماء في الأواني المستطرقة ستصل إلى كل جزء علي الأرض مهمـا تأخر وصولها ولكن سـيأتي اليوم الذي ستـجد طريقها.. إن الإنجلـيز وإن كانوا مستعمرين فيما مـضي إلا أنهم أيضا قد أعطوا العالم دروسا في الحرية، واحترام الحكام للشـعوب.. ومـاكـادت الفرصـة تتـاح له حتى ألـقى قصـيـدة يتغنى فـيـها بالحـرية والديموقراطيـة، وأكد على ضرورة احتـرام حقوق الشـعوب المغلوبة ومعاونة الشـعوب المضطهـدة.. فالحـرية لا تتـجزأ وليـست من حق شـعب دون شعـب.. حتى تنتـهي الصراعات في هذا العالم، وينطلق الجميع إلى بناء مجـتمع عالمي يسعد فيه الإنسان ولا يشقى..

وأنه يجب أن يكون من مـهـام الأمم المتـحدة انـقاذ الشـعـوب من ديكتـاتورية حكامها..

وماكـاد يرجع إلى الفندق حتى أخـذ يحكي لزوجته رحلـته إلى " هايد بارك " وخطابه فيمن تجمع من الناس ممن يعـرفون العربية وغيرهم فالناس يتطوعـون بالترجمة الفورية.

وتضحك من كل قلبها وتقول مازحة :

- لماذا نبحث عن طفل مادمت أنت معي.. هل تتصور أن كلامك هذا له تأثير على أحد.. أو سيأخذه أحد مأخذ الجدية!!

- إنه ليسعدني أن أكون طفلا.. إن حديثهم دائما بريء، وصريح ومباشر.. لا يعرفون الالتواء مثلك..

- مثلي أنا ؟

- نعم مثلك.. قوليها صريحة أنك لا تستغنين عني ولو لساعة واحدة..

وتضحك من قلبها.. هانئة سعيدة بجنونه وطفولته كما كانت تردد دائما..

وانتقل حامد الجوهري ولبنى إلى مدينة "مانشستر" في جنوب انجلترا لإجراء العملية في كلية الطب التابعة لجامعة المدينة.. طبقا لترتيبات المركز الصحي الكويتي في لندن.. وبعد أن أجريت له بعض التحاليل، وأخذ منه السائل المطلوب لتلقيح البويضة أطلق سراحه ليمضي على راحته في مروج ودروب هذه المدينة الجميلة، وحدائقها العامة والخاصة التي تعطي صورة أخاذة لسحر الطبيعة، واستغلال الإنسان المتحضر هذا السحر الإلهي لتجميل حياته.. وأدرك أن الإنسان قادر على أن يجعل من الحياة فردوسا إذا أراد..

كان مسكنه هو ولبنى دورا في فيلا.. نزل وحده مبكرا ليرى الطبيعة وهي تخلع غلالة النوم.. كعادته كل صباح.. كم يسعده أن يخرج إلى الطرق ليرى سكان الحي، وهم يركضون في الطرقات التماسا لرياضة صباحية.. يتنفسون الهواء البكر.. وبينما يعبر الساحة الخضراء رأى الجمال النائم المتمدد على البساط السندسي.. وقد احتضنته أشعة الشمس الرقيقة فصاح : أفروديت.. لا شك أنها أفروديت هبطت لفورها من عرشها..

وتقدم منها وسألها أنت بشر أم أنك أفروديت التي تحدثت عنها أساطير اليونان!!

وكما كانت تضحك "فـاتنة" الرمادى سعيدة بإطرائه ضحكت فتـاة "مانشستر" وهي أكثر سعادة ومرحا..

قال وهو يحكي للبنى :

- سألتني من أي بلد أنت ؟

ولما أجبتها تابعت أسئلتها :

- وما مهنتك؟

ولما عرفت أنني شـاعر عجـبت لهذا فهي تظن أن الشـعر والفن من اختـصاص الأوروبيين وحدهم.. قلت لها:

- إنكم تتصورون أننا حـيوانات سائمة لا مشاعر عندنـا ولا عواطف، إن الشعر ياسيدتي هو سجل العرب، وموطن نبوغهم.

وتقطع عليه لبنى حديثه ثائرة متنمرة:

- لا بد من وضعك في قفص حتى تكف من ملاحقة النساء.

- آسف لا بد أن تضيـفي لها كلمة الجمـيلات حتى تعبـري عن الواقع بدقة يا سيـدتي.. فالـشعر ليـس صندوق زبالة يوضع فيـه أي شيء.. ولن أحكي لك بقـية الحديث بعد أن أهنت الشعر.. وأنت لست عـادية ولكنك فنانة، وخريجة فنون جميلة كما أنني لا أنظر إلى الجـمال نظرة حيوانية حقيـرة.. وإنما أنظر نظرة الهائم المأخوذ في ملكوت الخالق المتمكن من روعة الخلق والإبداع، إن الجمال هو قوام هذا الكون وسره، ويتوقف على نظرة الإنسان له وطريقـة تعامله معه.. فإذا أدركت سره اندفـعت تبحثين عن الجمال في كل ما حولك.. أرأيت الحدائق حول البـيوت والهالة التي تضفيها على

المبنى والمكان، وكيف نقف أمامها مشدوهين معجبين.. مع أن هذه الحدائق لو لم يفكر أصحابها وعشاقها أن يزرعوها أو ينسقوها لما كانت سوى أرض كالحة جافة.

حتى في مجال السياسة.. فإذا لم يحس الإنسان عظمة وجمال الحرية ظل عبدا ذليلا.. وفي مجال الخلق والإنشاء لما بنى هذه القصور الباذخة، والتماثيل الرائعة ولما خطط وأبدع.. الجمال يا سيدتي هو قوام هذا الكون دون منازع.. فلا تنزعجي إذا عبرت عن إعجابي بأبيات لا أملك سواها..

***

احتفل الزملاء بعودة حامد الجوهري من لندن وكان فيصل الثنيان صاحب الدعوة وحكت لهم لبنى شطحـاته في "لندن" و"مانشستـر" وجلوسه في سوق الأخـيرة على مقـاعد أعدت لراحة المرتـادين لهذا السوق الذي يضم فـروع أشهر المحلات العـالمية.. وكان أهم مـا استلفت نظره عامـلات المحال وهن غاديات رائحـات.. أجسام رياضـية رشيقة تدق بلاط الساحة-كما يقول- وكأنهن أفراس رهان..

وظل يردد على مسامعي أنه لاينظر إلى الجـمال نظرة الذئاب إلى الفريسة، ولكنه ينظر إليه نظرة المتأمل في صنعة الخالق و إبداعه.... حتى لا أتابع حركاته و سكناته أو أحول بينه و بين جنونه وولعه الأخرق بمشاهدة الجميلات.

وروت لهم كيف تركها في غرفة العمليات بالجامعة، وسافر في رحلة إلى مسقط رأس الشاعر الإنجليـزي "وليم شكسبير" وادعى أن اسـمه الحقيقـي "شيخ صابر" وأنه تحول إلى"شيك صابر" ثم حرفت إلى شكسبير..

ولقد جلس أمام تمثـال شكسبير يقرأ لـه الفاتحة، ولما سأله الموجودون عـما يفعله أخبرهم بأنه يقـرأ الفاتحة، و بين لهم أن الفاتحـة هذه تخفف عنه ذنوبه، و أنه يشك في أن يكون له ذنوب، فالشـعراء كائنات رقيـقة لا ترتكب ذنوبا فهم بين البـشر والملائكة، وإن كان بعض الناس يتصور أنهم أشبه بالأطفال مـستهينا ببراءتهم، وعدم قدرتهم على المداهنة والرياء.

وأصر على أن يبحث عن أحـد من نسل شكسبير أو أقاربه وذهـب إليهم يهنئهم لأنهم ينتمون إلى هذا العبقري، وأخذ على الإنجليز أنهم لا يقدسون العباقرة في الأدب أو العلوم والفنون كما نقدس نحن أولياءنا، ونقيم لهم الأضرحة، شعوب ناضجة -كما يقول- ولكنها لا تقدس أبناءها من المختـرعين والحكام كما نفعل!! وأنه علينا أن نرسل بعثة تنبههم إلى هذا الأمر الخطير..

فشكسبير يجب أن تقام له الموالد وتقرأ فيه الأناجيل على اختلافها والميكروفونات على آخرها، ويجتمع الناس هناك ويأكلون السمك والبطاطس في مولده.. كما نجد الحمص وحب العزيز والبطاطا في مولد السيد البدوي والمرسي أبو العباس..

وأصر أيضا على أن يزور قبر «كرومويل» قبل أن نغادر لندن..

- لماذا يا جوهري... ومن كرومويل هذا؟!

- أنا لم أكن أعرف أنك بهذا الجهل السياسي، وبتاريخ الأمم والشعوب!!

ثم يتابع بعد صمت قصير:

- إنه يا سيدتي الرجل الشجاع الذي وقف أمام الملكية العاتية منذ ما يقرب من أربعة قرون ليقول للملك قف مكانك.. إن للشعب الحق في أن يحكم نفسه بنفسه، وأنك لست السيد المطلق لتقول ما تشاء وتفعل ما تريد ولكن هناك دستور بيننا وبينك لا تتعداه.. فأنت تنفذ وتشرف على ما يريده الشعب فأنت من الآن رمز له.. ولا سلطان لك أكثر..

وكانت معركة.. وانتصر كرومويل والشعب.. ولم يكن الانتصار للشعب الإنجليزي وحده.. ولكن كان الانتصار لشعوب العالم، وعرف الناس في هذا الكون أن الديمقراطية هي حكم الشعب لنفسه.. ألا يستحق هذا الرجل أن يزار، وأن ندعوا الله له!! ونأكل على روحه البطاطا!!

***

مرت الأيام وبدأ الجنين يكبر ويتحرك في بطن لبنى.. وهي والجوهري يكادان يطيران من الفرح، ويعدان المكان والأثاث والملابس والمستشفى الذي ستتم فيه عملية الوضع، وكان الجوهري رغم حرصه على النقود.. إلا أنه لم يعترض على أمر، وكان يقول: الناس يجمعون المال، ويحرصون عليه من أجل أولادهم، بل إن بعض الناس يبالغون في الحرص، ويحرمون أنفسهم من متع الدنيا من أجل اكتناز أموال لأولادهم وكان يضرب المثل بثري بالغ الثراء.. فيقول إنه كان يقسم السيجارة إلى نصفين.. رغم غناه، وكثرة أمواله.. ثم رأيت من استمتع بهذا المال فقد مات بعده ابنه، وورث المال ابن ابنه، وكان ضعيفا أمام زوجته واستولت على المال وبددته.. ومع هذا فقد ظل الناس على طريقتهم؛ ورغم ما رأيته من بذخ هذه المرأة وجنونها إلا أنني سأحاول أن أكوّن لابني ثروة تعينه في هذه الدنيا المادية.. إنه حلمي أنا ولبنى العزيزة التي كان مهرها قصيدة.. رغم مركزها وأصالتها..

وكما يقول المنزلاوي دائما إن الكويت بانصهار أبناء الأقطار العربية فيها حلم جميل.. فإن حلمي ولبنى جزء هذا الحلم الكبير.

وبدأ يؤسس في غرفة المولود مكتبة يزودها بكل ما يحتاج إليه طفل يستطيع التمييز حتى سن الخامسة.. وبعدها نفكر في الرحلة التالية.. وملأ حوائط الغرفة بصور الأطفال من كل شكل ولون تعميقا للمؤاخاة بين بني البشر.. ويضع تحتها عبارات تؤكد هذا الإخاء، ويقول إن الأفكار الجميلة والقيم النبيلة أو الشريرة هي نتائج لما يزرعه البيت أولا ثم المدرسة والمجتمع فيما بعد...

وكانت لبنى لا تقل فهما لرسالتها كأم وكمربية، فأخذت في توفير كل ما يلزمه من ملابس، وأبت إلا أن تصنع كل شئ بيدها، وبلمساتها الفنية هيأت الغرفة بطريقة تتفق مع ذوقها الرفيع.. السرير هنا.. وخزانة الملابس هناك.. حتى البزازات

والحفاضات كانت في أمكنتها، وتراكمت هدايا زميلاتها وصديقاتها حتى ملأت غرفة مجاورة أطلق عليها غرفة التجهيزات..

ونزعت لبنى ورقة النتيجة لليوم الثاني من أغسطس وقالت وكأنها تزغرد:

- لم يبق إلا مائة وخمسون يوما ويتحقق الأمل أيها الشاعر المغرد..

ويقبلها في جبينها قائلا:

- إنني أحسد نفسي يا لبنى على كل شئ من يوم أن تزوجتك.. كانت قصيدة الأمل.. إنني أعتبرها أغلى قصيدة في الوجود.. فالشعراء كانت عطاياهم دراهم ودنانير.. أما أنا فكانت جائزتي قلب ينبض بالحب والإخلاص، وما أبعد الفرق بين هذا وذاك، ونسيت أهلي ودياري فأنت أهلي والكويت دياري لا فرق بينها وبين "دبي".. فأنا وأنت نجسد الوحدة العربية، ومجلس التعاون معا!!

وتركها ونزل إلى عمله في النادي الصيفي، ومقره مدرسة "الرازي"، وسار في طريقه من لؤلؤة المرزوق حتى وصل إلى شارع بغداد.. وعند أوله وجد صفا من السيارات تقف أمامه، حاول أن يرجع إلى الخلف ولكنه وجد أن خلفه من السيارات صف أطول مما أمامه.. ما الذي يحدث اليوم؟! إنه شئ غير عادي، وتحركت السيارات ببطء شديد حتى وصل إلى مجموعة من الجند يلبسون "الكاكي" ولهجة غريبة تأمره بالنزول، ويأخذ الجندي منه دفتر السيارة ورخصة القيادة، ويذهب بهما إلى سيارة تقف غير بعيد، وعاد بعد لحظات.. وهو يقول في صوت آمر:

- الحين امض.. ولكن في ظرف أسبوع تراجع المرور لتغيير هذي الرخص الخايسة..

لم يصدق الجوهري ما يسمع، وظن أنه في حلم.. فأجاب في انفعال:

- كيف خايسة؟! والرخصة لا زالت سارية المفعول، ومجددة من ثلاثة شهور!!

في لهجة قاطعة يقول الجندي:

- اغلق فمك هـذا.. وإلا مزقت أوراقك، وألقيت بك فـي السجن.. أتدري من نحن؟! نحن المغاوير أبطال القادسية..

أخذ أوراقه، وانطلق في طريقه.. ما هذا الذي يحدث.. نحن المغاوير.. أبطال القادسـية.. ألغاز هي أم أنني أصـبحت بطيء الفهم.. ومـا دخل السجن في المرور!! الجيش كان على الحدود وليس في الشوارع والمدن!!

وما كاد يصل إلى مدرسة الرازي حتى اكتشف أنها خالية حتى من الفراشين، إنه نائم بلا شك.. إن ما يراه اليوم مختـلف تماما.. أيكون اليوم إجازة ولا يدري! إن ما يراه ليس حلما أو إجازة ولكنه كابوس مزعج..

اتصل بمحمـود المنزلاوي في مركـز كيفـان الصيـفي.. لم يجبـه أحد.. اتصل بالوزارة.. رد عليه صوت قاس سأله عن اسمه.. وعندما أجابه قال له بصوت آمر:

- ماكو مراكز صيفي ولا شتوي.. إذهب إلى منزلك ولا تخرج منه..

وأعقب هذا طلقـات مدافع، وأزيز طائرات تملأ الجو.. عاد إلى المنـزل مأخوذا، وتكرر ما سمع فأدرك أن أمرا خطيرا قد حدث.

ولم يكد يغلق بابه حتى هرع إلى لبنى ليخبرها بما رآه ولكنه وجدها نائمة بعد أن قضت ليلة ليست مريحة بسبب الحمل، وأسـرع يتصل بمنزل محمود المنزلاوي، فقال له في صوت حار في تحديد لهجته، بين الحزن والبكاء والاستنجاد..

فأسرع إليه وما كاد يراه حتى قال والدموع تملأ عينيه:

- تصور يا جوهري.. أن الكويت تحت وطأة الاحتلال..

ويقول الجوهري مفزعا:

- احتلال.. أتقول احتلال.. ومن يحتل الكويت وهي في حضن أشقائها من الشمال والجنوب والغرب. أما الشرق فالخليج، فمن أين يأتيها الاحتلال!!

- يا جوهري افهم جاءها الاحتلال من الشمال أي من العراق..

- إنك تهذي يا محمود.. كيف يتأتى لشقيق أن يحتل شقيقه وفي وقت تتنازعنا الأطماع الخارجية، ويقفون لنا بالمرصاد ليجدوا أي مبرر للوثوب علينا.. إن أي مجنون أحمق لا يمكن أن يفعل بنا وبنفسه هذا فالنتائج وخيمة.. والغزو أصبح من مخلفات عصور ماضية، وأن الذين يفكرون بهذه الطريقة متخلفون حضاريا.. ويعيشون في وهم قتل قبلهم أعتى الجبابرة.. مرورا بالتتار ونابليون وهتلر!!

كما أن الكويت كان سندا للعراق في أزماته من يوم أن حباها الله بثروة النفط.. لم تبخل على أحد، بل كانت سباقة كريمة مع كل طارق لبابها.. بل ومع من لم يطرق بابها من أشقائها.. فوق أنها دائما رسول سلام ومودة بين المتناحرين من الأقطار العربية.. فهل يكون جزاؤها حصادا مرا لقاء كل هذا بل وأكثر من هذا!!

كانت بيوت محمود المنزلاوي، وحامد الجوهري، ومعاوية الحموي وفيصل الثنيان متجاورة في السالمية أما بيت كاظم السامرائي فكان في أبرق خيطان وعوني النفيسي في حوَلّي..

اتفقوا على أن يجتمعوا في منزل فيصل الثنيان، كما كان موعد اللقاء الواحدة صباحا.. وكان أول المتحدثين فيصل الثنيان إذ قال في صوت باك:

- أرأيتم يا إخوان ماذا حدث للكويت الحبيب.. إن ما حدث طعنة في الظهر، وتمزيق لشرف العروبة، وسقطة لن يفيق منها العرب بسهولة..

هل يكافأ الكويت بعد كل تضحياته ومساندته للعراق في كل موقف بالاحتلال.. إنني لا أجد الكلمات التي أعبر بها عما حدث.. وعن الجرح الذي أصاب الكويتيين جميعا بل أصاب العرب كافة.. إنني لا زلت أتصور أنه مجرد كابوس، وأن الصورة ستتغير بين لحظة وأخرى..

ثم سكت بعد أن اختنق صوته

وتحدث كاظم السامرائي فقال في جدية:

- لا أدري ماذا أقول يا إخواني.. فماذا يفعل المواطن إذا ابتلي بحاكم من هذا الطراز.. ليس ذنبي يا إخوتي أنني عراقي وإنما هو ذنب حكام العراق.. إن التهديد بغزو الكويت كان يأتي دائما عقب الوصول إلى قمة إفلاسهم السياسي كما حدث من عبد الكريم قاسم.. وهذه وسيلة غبية كان يلجأ إليها الطغاة في العصور الماضية عندما يفلسون سياسيا أو اقتصاديا، ويرون أن الدائرة ستدور عليهم، وأن يد الشعب ستطولهم يغازلون أحلام الغوغاء بالغزو والسيطرة على شعوب أخرى..

أموال ستصل إليهم بلا كد أو تعب، وجوار وعبيد بلا عدد وسيصبحون السادة لهذه الأمم، والحكام لهذه الأقاليم.. أسلوب بال عتيق لا ينفع مع منجزات العلم والتكنولوچيا الحديثة، والمصالح المشتركة بين دول العالم.. فهذا ليس أكثر من إفلاس داخلي بعد هذه الحرب الغبية التي امتدت لأكثر من ثماني سنوات بين العراق وإيران من غير سبب مفهوم أو معقول.. وكان من الممكن تسويتها بالطرق الدبلوماسية بين شعبين متجاورين.. اختلطت دماؤهما بالنسب والإقامة الدائمة المتبادلة منذ قديم الزمان..

وانتهت هذه الحرب بافلاس الجانبين دون غنم.. فلماذا لا نسرق مافي جيوب العقلاء من حولنا؟ بل لماذا لا نغتصبهم؟ وهذا ماحدث!! وأنا كعراقي عشت هنا، كمواطن لي كافة حقوق المواطن الكاملة.. أرفض هذا العدوان الآثم و أبغضه.. فهو

خطأ جسيم. . فشعب الكويت شعب عربي أصيل شقيق، ولا أرى مبررا سوى الإفلاس السياسي والإقتصادي. .

ويقول معاوية الحموي. . إن ماحدث قد حدث فكيف نتصرف إزاءه. . واذا كان حاكم العراق قد غرته حشوده وأسلحته فإن للشعوب أساليبها في الدفاع عن نفسها، وهي أسلحة مجربة وحاسمة إنها حرب العصابات استطاعت بها روسيا أن تهزم أعتى الجيوش الألمانية في عهد هتلر. . التي هزمت أوروبا بمدافعها وطائراتها، ولكن المقاومةالشعبية سحقتها، فاطمئنوا، فالغزو قد يكون سهلا. . ولكن الأهم هو القدرة علي البقاء، والمقاومة الشعبية سلاح فعال في مثل هذه المواقف. .

أما محمود المنزلاوي فيقول في هدوء :

- ياجماعة إن هذا الإحتلال مؤقت مهما ظن المعتدون أنهم قد حققوا انتصارا أو غزوا في غفلة من الزمان. . وأكبر خطأ يرتكبه حاكم العراق إصراره على البقاء على أرض الكويت. . فالإقتصاد العالمي تحكمه توازنات ومقاييس تدخل فيها مصالح بقية الشعوب التي تعيش معنا على هذا الكوكب ولو كانت بعيدة عنا، ولابد أن تكون لها رأي في هذا الإحتلال، وستناهضه وتقاومه لأن وضع الكويت بثروتها النفطية يعطي لها امتيازا ووضعا خاصا، كما أن العالم أصبح قرية صغيرة ومايحدث في مكان ما يؤثر على الآخرين؛ فالكويت ليس وحده في هذا العالم، ولن يكون لقمة سائغة للطامع الباغي. . وهذا الاحتلال الذي تم بغطرسة وغباء سيمزق العرب شر ممزق. . وسيضرب التضامن العربي في مقتل. . فكل تصرف مهما كان فجا أو سخيفا سيجد من يؤيده حتى ولو كانت الكثرة ترفضه. . والنتيجة هي انهيار التضامن العربي. . وانهيار مؤسساته. ، وسحب البساط من تحت أقدام الجامعة العربية أكبر هذه المؤسسات. .

واندفع حامد الجوهري في حماس. . إن هذا الغزو يقتل الأمان والاستقرار في

الوطن العربي، فمن يأمن جاره بعد اليوم ؟ ومن يستطيع أن يقول إن اخواني يعيشون خلف الحدود وهم يحملون البنادق و المدافع والقنابل والطائرات، ويجيشون الجيوش للوثوب على من يدعون أنهم إخوانهم..

إن هذا الغزو أجهض أحلام العرب في التقدم والرقي والنهوض والتعاون.. وسيؤخر قيام مؤسسات التضامن والإتحاد فيما بينهم إلى أجل غير مسمى.. وعلينا نحن الرجال أن ندافع عن مستقبلنا وأحلامنا ضد هذه الهجمة البربرية. وأن نقاوم مهما كانت الظروف والتضحيات..

ويقول عوني النفيسي: الحقيقة أنني فوجئت بهذا الإحتلال الذي لا مبرر له.. وكان الأولى أن توجه هذه الجيوش الجرارة إلى اسرائيل كما يدعي حاكم العراق.. ولكنه أسلوب يدل على الافلاس السياسي كما قال بعض الزملاء.. وأظن أن هذا الاحتلال لن يحقق للمعتدي سوى الحسرة والندامة، وتحطيم هذه الآلة الجهنمية التي أخطأت طريقها، وكان الأجدر بها أن تتجه نحو الغرب.. نحو الذين اغتصبوا أموالنا وديارنا بدلا من أن تتجه نحو الجنوب نحو إخوة مسالمين. أعانوا في الشدة ووقت الحاجة ثم نكافئهم باحتلال أراضيهم بلا جريرة أو ذنب..

ويعقب فيصل الثنيان.. لابد لنا بعد هذا أن نفعل شيئا وأن نتخذ قرارا محددا.. إنني لا أستطيع أن أعيش في وطن محتل، إنني أختنق يا إخواني . فماذا تقترحون ؟

ويتجه إلى محمود المنزلاوي فيقول في صوت عميق :

- هناك أيها الإخوة محاولات تبذل لإقناع حكام العراق بالإنسحاب. فاذا استجابوا.. كان هذا حقنا للدم العربي.. وإذا لم يستجيبوا فسيكون لنا موقف آخر.. وهو الدفاع عن الحق أيا كانت النتائج، لقد أمر الله سبحانه بالوقوف مع الحق والدفاع عنه.

ونحن الآن نضع أنفسنا تحت إمرة فيصل الثنيان. . وما يأمر به نافذ. . وهذا رأيي. . فإذا كان لأحدكم رأي مخالف فليتفضل ويقول لنا مايريد. . ففيصل صاحب الأرض والقضية، وإن كنا نشاركه القضية. .

هز الجميع رؤوسهم بالموافقة، بينما قال فيصل :

- إنني لا أجبر أحدا علي البقاء معنا في القضية أيضا فإذا أراد أحد أن ينسحب منها فقد يكون له عذره، وأنا لا أمنعه. .

وينتفض كاظم السامرائي غاضبا ويقول منفعلا :

- إنك تقصدني بلاشك يافيصل. . ولكنني أرفض أن أخون إخواني وأهلي وأقف مع جيش تتري خان العروبة، ومزق شرفها، واعتدى علي حرمات جيراننا وأهلنا وعشيرتنا، كما أنني لا أشك ولو للحظة واحدة أن غالبية الشعب العراقي يعارضون هذا الغزو ويلعنونه، والشعوب المغلوبة على أمرها، ويحكمها دكتاتور لا رأي لها. . والجيوش عادة هي أداة هذا الحاكم تنفذ مايريده، وأنا ياسادة على رأس هؤلاء المعارضين. . ،لكن ماذا بيدي !! فأنا واحد منكم، وأضع يدي في أيديكم حتى تنجلي هذه الغمة، ويزول هذا الكابوس الذي جثم على صدر الأمة العربية بأسرها قبل أن يجثم على صدر الكويت. .

***

مضى حكام العراق في غيهم.. ولم يستجيبوا للمناشدة العربية أو الدولية بضرورة الإنسحاب، و كشف الغزو عن وجهه القبيح باغتيال بعض الشخصيات العامة، ومحاولة تجنيد البعض الأخر ولكن الجميع رفضوا أي تعاون مع المحتل، وأن يتحول الواحد منهم مخلب قط لحكام العراق ضد أبناء شعبه.. فانطلق المحتلون يعيثون في الأرض فسادا.

كما رفض شعب الكويت الحكم المزيف الذي حاوله المحتل باستيراد حكومة، وادعاء أنها كويتية.. وهب الشعب للدفاع عن نفسه.

واجتمع فيصل الثنيان بمجموعته، وطلب من كاظم السامرائي و عوني النفيسي أن ينتقلا للإقامة معه.. وناقشوا إمكانية القيام بعمل ما تضامنا مع الثائرين والمناضلين.. واقترح حامد الجوهري ضرورة نسف الدبابة التي اقتحمت قصر "دسمان"، واغتالت المدافعين عنه وفيهم بعض الشخصيات العامة..

ونال هذا الإقتراح الاستحسان، ولكن فيصل الثنيان قال:

- نحن لا نملك سوى بعض المسدسات، وربما تصلني بندقية آلية الليلة القادمة، فكيف ننسف بهذه الأسلحة دبابة؟!

ويجيب كاظم السامرائي في ثقة:

- دع هذا الأمر لي، فأنا أستطيع بإمكانياتي المتواضعة،وبهذه الأسلحة البسيطة تدمير هذه الدبابة الضخمة.. فأنا مدرس علوم.. فاطمئن أيها القائد..

و أصبح فيصل الثنيان يحمل لقب قائد، و لا يخاطبه أحد إلا بهذه الرتبة.. وذكر لهم كاظم تفاصيل خطته بعدها بيوم..

و حدد فيصل لكل فرد دوره في العملية و سماها بالعملية رقم واحد.. وكانت

الخطة تقضي بوضع مادة ناسفة داخل الدبابة، وتفجيرها بوساطة مفجر تحيطها أنابيب غاز البوتاجاز شديدة الإشتعال. .

و لكن كيف يتم وضع كل هذا داخل الدبابة. . إذ لابد من القضاء على طاقمها أولا. . فكيف يمكن القضاء عليهم؟

و يقول فيصل:

- إذن هناك سؤالان لابد من الإجابة عليهما. . السؤال الأول: كيف نصنع المتفجرات؟ والثاني: كيف نضعها في الدبابة، و بها طاقمها وهو لا يقل عن ثلاثة أفراد؟!

و يقول المنزلاوي:

- علينا أن نوجد المتفجرات أولا. . ثم بعد هذا نفكر في الطريقة التي نستطع بها أن ننسف الدبابة، وإذا نجحنا في هذا الأمر كانت معجزة. . حتى ولو لم نستطيع أن ننسف الدبابة استطعنا أن نفعل بها شيئا آخر. .

ويؤمن فيصل على كلامه فيقول كاظم:

- إذا استطعنا أن نصل إلى معمل مدرسة متوسطة أو ثانوية نكون قد وضعنا أقدامنا على الطريق الذي يوصلنا إلى غايتنا. .

ويقول عوني:

- لدي فكرة إذا تمت نكون قد سرنا شوطا في تنفيذ غايتنا، إن فالح الشويخ ناظر مدرسة المتنبي يستطيع أن يخدمنا في هذه الخطة. . فهو ناظر المدرسة. . وهذه المدرسة توفر علينا مشقة الانتقال إلى "بنيد القار" مع أنابيب الغاز والمتفجرات ولكن السؤال: أين نجد فالح الشويخ؟

ويجيب معاوية الحموي:

- اتركوا الأمـر لي.. فأنا أعرف مكانه.. إنه يقيم بجـوار المدرسة.. ولا شك أنه يعرف كل ركن فيـها، فهو ناظرها وهو أيضا رئيس ناديها الصـيفي.. وهو زميلكم جميعا، ويعرفكم واحدا واحـدا.. ولن يقصر في عمل وطني كهذا.. ولكن من يتصل به، ويشرح له الأمر؟

ويقول فيصل في ثقة:

-اتركوا لي هذا الأمر..

وبعد يومين أعطى فيصل الثنيان إشارة البـدء في العملية ولم يخبرهم بما دار بينه وبين فالح الشويخ واعتـراضه على اشتراك كاظم السامرائي في العـملية.. ولكن فيصل طمأنه، وأخذ الأمـر على عاتقه.. وقال له: ليس كل العراقيين يوافـقون حكامهم على الغزو، لأنني مـتأكد من أن غالبـية الشعب العراقي غـير راضية عن هذا الغـزو.. فهو اغتصـاب لحقوق شعب شقـيق، أو سطو مسلح، ولا تقبل الفطرة السليـمة هذا العمل الشائن، وكاظم نعرفه منذ سنين، ودماؤنا تجري في عروقه..

ومر أسبوع كامـل كان كاظم وفالح يترددان فيه على معـمل مدرسة المتنبي حتى استطاع أن ينجز عشر زجاجات من المتفجرات.

وجمع فالح الشويخ سته اسطوانات غاز، وأخـيرا أنهى إليهم كاظم خبر الانتهاء من تجهيز أسلحة العملية ثم سأل:

- كيف سننفذ الجزء الثاني من العملية؟

صمت الجميع واتجهوا إلى فيصل فقال في صوت هادئ:

- لقد كنت طوال مدة تجهـيز المتفجرات أمعن النظر في خطة وأظـنها منطقية..

إننا لكي نضع كل هذ ه المتفجرات في تلك الدبابة لا بد من توافر أمرين؛ أولا: تفريغها من طاقمـها والمكون على الأقل من ثلاثة أفراد.. ثانيـا: أن تنتقل هذه المتفـجرات إلى الدبابة فور إخلائها بسرعة حتى لا نفاجأ بدورية مارة.. ولكي نقلل من خطورة المفاجأة لا بد لنا من الحصـول على ملابس عسكرية.. وهذه الملابس لن نحصل عـليها إلا من طاقم الدبابة.. هل استوعبتم الخطة؟

وأضاف زيادة في الإيضاح.. لابد لنا من القـضاء على طاقم الدبابة.. وهذا ما أقصده من تفـريغها من طاقمها.. ثم ننزع عنهـم ملابسهم، ويلبسها ثلاثة منا ليـقوموا بتجهيز كل شئ انتظارا للحظة الحاسمة وهو عملية التفجير.. وسيقوم بها الأخ كاظم.. وقد وضـعت خطتان لهذا: الأولى مـفجر كـهربائي عن بعد.. ونسـبة النجاح فـيه لا تتجـاوز خمسين في المائة، والثـانية هو سكب البـترول على هذه الأنابيب والمتفـجرات داخل الدبابة، وإشعاله باليد..

- إنها خطة محكمـة أيها القائد.. ولكن هل فكرت أيضا في طـريقة التخلص من طاقم الدبابة؟

سأل معاوية هذا السـؤال المفاجئ، والذي كان على لسان الجميع.. فـقال فيصل في لهجته الهادئة الواثقة:

- في الحقيقة لقد شغلني أمر التخلص من طاقمها لأنه أهم عنصر في خطتنا.. ولم أجـد وسيلة واحـدة لإخراج هـؤلاء الجنود منها سـوى المرأة.. هي التي تسـتطيع هذا..

ويقول المنزلاوي:

- ألم تخرج آدم من الجنة!!

و يعقب حامد الجوهري:

- ولكنها هنا ستقوده إلى جهنم..

علت وجوهم ابتسامات خفيفة سرعان ما تبخرت..

وسأل كاظم:

- ولكن من أين نأتي بنساء؟

- ليس أمامنا إلا أن نتحول نحن إلى نساء لمدة نصف ساعة.. ونضع العطور النافذة.. ومضى في شرح خطته:

- والجنود شباب محروم.. إذا لوحت له امرأة بيدها انطلق وراءها ونسي كل شيء.. لقد أحضرت ملابس تكفي خمسة رجال للتحول إلى نساء.. ولتذهب كل أنثى برجلها في مكان بعيد عن الآخرين للتخلص منه بأسرع ما يمكن.. ولتكن الطعنات في القلب مباشرة.. ثم نرتدي ملابسهم ونعود إلى جوار سور المتنبي لتنفذ بقية العملية..

ونجحت العملية، وكان لنجاحها صدى بعيد لدى الشعب الكويتي فأشعلت فيه روح المقاومة.. كما أنها كانت عملية جريئة أذهلت المحتل الغاصب، فجن جنونه؛ وقد امتلأ بهم المكان على صوت الانفجار، وأرادوا الانتقام للعملية فانطلقوا يفتشون المنطقة، فعثروا على شخص شبه محترق يلبس ملابس جندهم.. فنقلوه للمستشفى لعله يبوح بكلمة ترشدهم إلى من قاموا بالعملية، ولكن عبثا حاولوا ولم يكن هذا الجندي سوى كاظم السامرائى..

فقد حاول تنفيذ العملية بمفجر كهربائي عن بعد فلم يستطع فما كان منه إلا أن صعد على ظهر الدبابة وسكب البترول على المتفجرات، وأشعلها بيده.. ونسي أن ثيابه

مشبعة بالبترول فامتدت إليه النار . . وحــاول الجري نحو البحر ليلقي بنفسه فيه . وأشار إلى زملائه أن يبتعدوا عندما اقترب منه بعض جنود الاحتلال الذين قدموا على الصوت المدوي الذي هز المنطقة وعندما نقلوه إلى المستشفى، وهم يظنون أنه واحد منهم . . كان قد فارق الحياة.

وأصبح كاظم السامرائي العراقي من أول شهــداء الوطن المحتل وكان موته فاجعة لزملائه لوفائه النادر، وموته في سبيل الحق والدفاع عن المظلوم، ولم تخدعه الشعارات الكاذبة التي كانت ترددها أبواق المحتل ليل نهار، وهو ابن جلدتهم . .

* * *

كان الوقت ظهرا. . سمع محسن البغدادي طرقا شديدا على الباب. . لا شك أن عمر قد نسي المفتاح. . دائما ينساه، ويزداد الطرق وبقوة، يفتح الباب متعجبا فيفاجأ بجندي يقف أمامه في صلافة قائلا:

- من أنت؟

- من أنا! ألا تعرف من أنا! أنا أسكن هنا. .

ويزيحه الجندي من مدخل الباب وينفذ إلى الداخل في غطرسة قائلا:

- لم تجب عن سؤالي بعد. . قلت لك من أنت؟

- لقد أجبتك. .

- لم تفهم بعد ما اقصده. . من أي جنسية أنت؟

- عربي مثلك. .

ويضحك الجندي مقهقها ويردد:

- مثلي أنا. . مثلي أنا. . أجبني بسرعة: مصري. . سوري. . فلسطيني؟

- سوري. . ولكن بأي حق تقتحم بيتي بهذه الطريقة، وتسألني هذه الأسئلة!!

- أنت تعرف هويتي دون أن أتكلم. . أما أنت فشخص مجهول، مجرد موظف خايس مثل من وظفوك. . إن هذه أرضنا ومعاشك الذي تناله من أموالنا المنهوبة. . فهمت؟

- لم أفهم شيئا. .

وفتح عمر الباب ودخل. . ألقى السلام، رد محسن أما الجندي فقد نظر إليه وهو جالس وقال:

- وهذا سوري مثلك!

- سوري أو مصري لا فرق.. فالعرب جميعا إخوة، ومن يفكر أو يفعل خلاف هذا يكون..

ويقاطعه الجندي في صلافة:

- ماذا تقصد يا مصري.. أنت وها السوري أمامكم ساعتان للرحيل من هنا.. هذه بلادنا، ولا نريدكم في هذا المنزل.. فنحن في حاجة إليه.

ويقول محسن البغدادي معترضا:

- كيف نجمع أثاثنا وكل حاجتنا في مثل هذا الوقت القصير.. وما الذنب الذي ارتكبناه حتى تفعلوا هذا بنا.. وهل معنى ذلك أنكم ستطردون كل سكان "الفحاحيل" من بيوتهم، أما أنه عقاب خاص بنا وحدنا؟!

- سنفعل ولكن في الوقت المناسب.. وإذا كنت تود السلامة فلا تتكلم كثيرا، وامتثل لما أقول .

ثم قام ودخل إلى المطبخ.. كان هناك طعام جاهز أحضره بلا استئذان، ووضعه على مائدة الطعام، وجلس يأكل وحده بجلافة وفظاظة، ونظر إليهما باحتقار قائلا:

- لماذا لا تجمعون أغراضكم.. سأقذف بها من النافذة إن لم تسرعوا بجمعها وحملها من هنا..

ثم قال في فظاظته وتحديه:

- ارفعا بقايا الطعام وتناولاها إذا كنتما جائعين.. وهو اللائق بكما..

فاغتاظ محسن البغدادي لأنه كان يوجه الكلام إليه.. فجمع بقايا الطعام وقذف بها في وجهه قائلا:

- إن هذا هو ما يليق بك.. لقاء وقاحتك وجلافتك..

ونفخ الجندي في صفارته فسرعان ما امتلأ المنزل بالجنود، وانهالوا عليهما ضربا.. وقذفا بهما إلى الطريق شبه جثتين هامدتين فحملها الأهالي إلى المستشفى القريب..

***

كان الجنود الغزاه يتصرفون بمنطق المحتل الكريه غالبا مما أثار الكويتيين وغيرهم من المقيمين، وكانت أخبار المصادمات التي لا تنتهي تنتقل بسرعة كبيرة. . وكان المحتلون يحرصون على إذاعتها داخليا وإبراز قسوة العقاب الذي نزل بمن يحاول أن يقف في وجههم. أو تسول له نفسه هذا. .

وعندما وصل الخبر إلى مجموعة فيصل. . أقسموا بالانتقام لمحسن البغدادي، وعمر الشبيني، وغيرهم ممن ذهبوا ولم يدر بهم أحد. .

كانت مجموعة فيصل الثنيان قد ازدادت خبرة في مواجهة المحتل الباغي وانضم إليها الكثير من الشباب، وتدربت على كثير من الأسلحة، كإلقاء القنابل اليدوية، وإصابة الهدف البعيد بالبنادق والمدافع المحمولة. . وجلب الذخائر عبر الصحراء عن طريق بعض القبائل المنتشرة على حدود البلاد الشقيقة المجاورة للكويت. . تمولها الحكومة الكويتية من الخارج. . وكانت الخطة في بادىء الأمر بين أحد احتمالين. . الأول: مهاجمتهم داخل المنزل الذي احتلوه رغبة في مضايقة الأهالي والمقيمين، بالعدوان عليهم وإذلالهم بإخراجهم من مساكنهم، وخاصة الدول التي وقفت مع الحق والعدل. . والاحتمال الثاني: استدراجهم خارج المنزل ومنازلتهم والقضاء عليهم. . واتفقوا على أن شاطئ الخليج هو خير مكان لهذا. . ولكن كيف يمكن استدراجهم خارج المنزل إلى شاطئ الخليج في هذه المنطقة البعيدة عن العاصمة. . وأخذوا يضعون فروضا. . اقترح البعض أن يلبسوا ملابس المحتل مما بحوزتهم ثم يختلقون مشاجرة بينهم على الشاطئ قريبا من المنزل وتطلق بعض الطلقات النارية. . وبهذا تثير اهتمامهم فيخرجون إلينا. . ويحاولون التفريق بيننا باعتبارنا منهم. . بينما يقف كمين مسلح قريبا من المكان ليصطادهم واحدا واحدا ويقضي عليهم. . ثم ننطلق إلى المنزل لنقضي على من بقي فيه بطريقة مفاجأة أو يقف الكمين بعد أن ينتهي من الموجودين قريبا من المنزل لاصطياد من يخرج. . فلا شك أنهم سيخرجون عندما يسمعون الطلقات .

وقال يعقوب الجاسم: إن العراقيين مولعون بالخمر والشراب.. من أيام أن كانت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية.. فما رأيكم لو حاولنا أن نرسل إليهم رسالة نخبرهم فيها بأن عملية تهريب وسكي ستتم هذا المساء عن طريق الخليج، وبذلك نغريهم بالخروج ونموه عليهم بإلقاء بعض الصناديق في المياه القريبة..

ويعقب حامد الجوهري فيقول:

- وماذا لو لم تغرهم صناديق الوسكي المزعومة؟

ويجيبه فيصل الثنيان:

- يكون لنا تصرف آخر وخطة أخرى..

وطلب من محمود المنزلاوي ان يكتب لهم رسالة تغريهم على الخروج.. واستطاع أن يكتب الرسالة، وضمنها أفكارا أخرى.. فبجانب إغرائهم بالحصول على هذه الهدية التي جاءتهم على غير انتظار.. فقد أخبرهم أنها ربما تكون أسلحة مخبأة في صناديق، وليست خمرا.. وبهذا ينالون سبقا في الدفاع عن جيش الاحتلال.. وربما ينالون أوسمة وترقيات وحدد لهم الوقت في الثانية صباحا.

وفي الموعد كانت الصناديق تسبح على سطح الماء في سرب طويل.. ووقف جنود الاحتلال على الشاطئ، وأيديهم على أسلحتهم للقضاء على المهربين، ولكنهم فوجئوا بأن الصناديق تسبح وحدها دون إشارة لأي بشر قريب أو بعيد عنها.. فألقوا بأسلحتهم، وتركوها في حراسة قائدهم وأسرعوا بخلع ملابسهم، وألقوها بجانب مهماتهم.. ونزلوا إلى الماء سابحين..

وحانت ساعة العمل.. فترك فيصل وجماعته موقعهم -وكانوا يختفون خلف بعض الصخور- فانقضوا على قائد المجموعة، وكتموا أنفاسه قبل أن يتحرك، أو يطلق إشارة تحذير، ولم يتركوه إلا جثة هامدة.

وأخذوا يصطادونهم واحدا واحدا عند خروجه من الماء في عتمة الليل، وهو يحمل صندوقه خنقا وبالسلاح الأبيض حتى تتم العملية دون ضجة.. ولا تستدعى قوات إضافية.

ويقول الزعابي بعد الانتهاء من العملية، وهم في طريق العودة:

- لقد كانوا يحلمون بليلة سكر وعربدة.

ولم يبتسم أحد في الظلام لهذا التعليق، كانت نفوسهم ملأى بالمرارة والألم.. أن يحتل العربي أرض أشقائه بقوة السلاح، وينكل بأهله وذويه، فيضطر الشقيق لقتاله للدفاع عن أرضه وكرامته.. أليس هذا أمرا مخجلا فوق أنه محزن ومبك!!

وانتشرت أنباء هذه العملية في أرجاء الكويت، وجاء مندوب لقائد الاحتلال في اليوم التالي مع قوة كبيرة من الجند لتفتيش الموقع ومعرفة أسباب هذه المذبحة التي أتت على أكثر من عشرة أفراد من خيرة رجال الاستخبارات.. وأخذوا يفتشون البيوت المجاورة ويهددون كل من يروه.. وكأنهم فقدوا صوابهم، وخرجوا في النهاية ببيان ينذرون ويتوعدون كل من اشترك في هذه العملية بأنه سيلقى سوء المصير.. وادعوا بأنهم يعرفونهم واحدا واحدا، وسيبحثون عنهم حتى لو كانوا في أطباق الأرض أو أجواز الفضاء..

***

دخل الجنود إلى المنزل الكبير، لم يكن بالمنزل سوى شيخ كبير طاعن في السن، وحفيدته الشابة، ألقى إليهم كبيرهم بضع كلمات فانطلقوا إلى غرف المنزل يقلبون الأثاث، ويحركون كل شيء من مكانه، ويحطمون ما يمكن تحطيمه.. سألت الفتاة قائدهم في سخرية:

- لماذا تفعلون كل هذا.. وهل هذا يجوز من أشقاء كما تدعون وأننا المحافظة المكملة لدولتكم الكبرى!!

لم يكن الرجل يتصور أن تجرؤ فتاة في مثل سنها على الحديث معه بهذه الطريقة، وتهزأ منه بأسلوب واضح النبرات.. فما كان منه إلا أن قال بخشونة:

- اخرسي يا حرمة.. لو كنت..

وتقاطعه في غضب:

- أنا لست حرمة.. وإنما الحرمة والحرام ما تفعلونه بنا، ماذا فعلنا بكم؟ أكنا في حرب معكم؟ أهو جزاء سنمار بعد كل ما فعلناه وقدمناه لكم في الحرب والسلم..

- كنتم تفعلونه مرغمين.. تخافون منا..

وتقاطعه في شجاعة:

- ولماذا نخافكم!

وتتابع وهو يقف مشدوها:

- إن المجتمع الإنساني ليس مجتمع ذئاب وحملان، ولكنه مجتمع عقلاء وأسوياء.. ولا توجد دولة واحدة في العالم إلا وبجوارها دولة أقوى منها أو أضعف منها.. فماذا يمكن أن يحدث لو غزت كل دولة قوية جارتها! وستجدون أنفسكم في قبضة من هو أقوى منكم.. وبذلك ستصبح الحياة غابة كريهة..

وقبل أن يجيب تتابع في سخرية:

- وإذا كنا المحافظة التي تكمل دولتكم فلماذا تعاملوننا كغزاة!!

ويقاطعها بدوره:

- أنتم ترفضون الخضوع، وتحاولون الخروج على سلطتنا، ثم إنه ليست هناك في المنطقة قوة أقوى منا، نحن الأقوى، وسنظل كذلك دائما..

وينزل الجنود من الأدوار العليا بالمنزل الكبير، ويصطفون أمام رئيسهم في وقفة عسكرية.. ويقول أحدهم:

- لم نجد أحدا ياسيدي القائد

ويصرفهم ثم يبقى بالمنزل، ويجلس على كرسي قائلا في لهجة رقيقة بينما وقفت أمامه "نورا" وكأنها تتحداه في شموخ:

- ما اسمك يا فتاة..

ويشير إليها أن تجلس. ولكنها لا تحفل به وتقول:

- ماذا تريد من اسمي.. ألم تنته أجراءاتك بعد؟

ويشعر بأنها تطرده، فيحاول اكتساب ودها فيقول ملاطفا:

- وهل يليق بالجميلات أن يخاطبن ضيوفهن بهذا الأسلوب..

وتجيبه وهي تضحك ساخرة:

- ضيوف.. ما أسخف الضيوف إذا كانوا بهذه الصورة.

فيقوم غاضبا من مكانه ويصفعها، فتصفعه بدورها قائلة في ثورة:

- أتصفعني أيها الجبان.. أتصفع فتاة يا جلف!!

وَيُفْتَح باب على الصالة، ويطل منه شيخ كبير، ويقول وجسمه يرتعش من الوهن والغضب:

- ماذا يريد منك هذا الخسيس الملعون يا نورا!

بينما يهجم عليها الرجل ويحاول أن يحتويها، ويدرك العجوز ما يريده بحفيدته، فينقض عليه بعصاته التي يتوكأ عليها، فيدفعه القائد فيرتطم بالجدار، ويسقط مضرجا بدمائه.

وتثور نورا وتحاول أن تنتقم لجدها فتهجم عليه، وتستعمل أظافرها وأسنانها في جسمه ووجهه.. فما كان منه إلا أن مزق ملابسها، ودفعها عارية إلى خارج المنزل بلا شفقة أو رحمة أو حياء، ولم يكتف بهذا بل طعنها في صدرها بخنجر مزق ثديها وتركها في عرض الطريق.. وهدد كل من يقترب منها لإنقاذها برميه بالرصاص.. وظل واقفا على رأسها حتى لفظت أنفاسها أمام عينيه..

كان عملا بشعا سرعان ما انتقل خبره بين المواطنين، وإن كانت إذاعة المحتل قد صورته بصورة امرأة مستهترة أرادت استدراج قائد منطقة الشامية ليقضي الليل معها، ولكنه رفض فحاولت الاعتداء عليه، ولكنها لاقت جزاءها المناسب.. وكان بصحبتها صديق لها حاول الدفاع عنها فلقي مصرعه كذلك.

و سرعان ما انتشر الخبر وعرف المواطنون الحقيقة.. وكانت قصتها مأساة كويتية أدمت قلوب الكويتيين جميعا.

هذه الأحداث ومثيلاتها بوحشيتها أدت إلى تصاعد المقاومة السرية فالحياة تصبح رخيصة وتافهة في ظل العبودية والاستبداد..

***

وقفت الفتاة في تحد وإصرار أمام بوابة الفندق الذي تحول إلى مقر قيادة تطلب مقابلة القائد.. وحاول جنود الحراسة أن يثنوها عن عزمها ولكنها أصرت على مقابلته...

وقفت أمام الضابط في شجاعة قائلة:

- وكيف تكونون هنا، وتحتلون هذه الأرض بثروتها الكبيرة وأنا لا أجد قوت يومي!!

ويتظاهر الضابط بالانفعال وهو يتجول بعينيه الوقحتين في جمال وجهها وسحر عينيها، وقوامها الممشوق قائلا:

- نحن لم نحتل هذه الأرض، وإنما استعدناها يا فتاة، وعليك أن تصححي معلوماتك. ولاتتحدثي بما يتحدث به الجهلاء الأغبياء!!

ثم يتذكر شيئا وكأنه غاب عنه فيتابع في حدة:

- ومن أنت؟ ولماذا جئت لمقابلتي!

- أنا عراقية مثلك.. ولي الحق في أن أطلب عملاً كي أعيش..

ويقاطعها مستغربا:

- عراقية مثلي!

- نعم.. ومن منطقة "الزبير"..

- وكيف جئت إلى هنا!

- الأمر ليس عسيرا يا سيدي القائد.. جئت مع الجنود القادمين.. وسرقت مني أوراقي وجميع ملابسي..

ويرتبك القائد بينما تتابع الفتاة:

- أليست هـذه الأرض أرضنا كما تقـولون.. أريد أن أعيش أنا وأمـي بعد أن ذهب أبي إلى الحرب مع إيران ولم يعد.. أنموت جوعا وحولنا كل هذا الثراء!!

كانت الفتـاة تتكلم بشجاعة وجرأة صـعقت القائد، وأذابت صلابته المتـعمدة.. وحركت عواطفه.. فقال وعلى وجهه ظل ابتسامة مرحبة:

- ماذا تجيدين يا فتاة؟

- الطهي.. وهل لفتاة مثلي أن تجيد غير الطهي!!

ويضـغط على جرس أمـامه، ويأمـر باختـبارها فـي مطعم الفندق. ويقول لهـا مبتسما، ولا زال سحر جمالها مسيطرا عليه:

- حذار من أن يكون في حكايتك شئ خلاف ما قلت.

وتجاهل في غمار إعجابه بجمالها أن يدقق في تحقيق شـخصيتها، واعتبرها صيدا وقع في شباكه فما حاجته لهذا! وصنع بيده إشارة إلى قطع رقبة من يذكر معلومات غير صحيحة.

وتنجح في المطبخ، وتصـبح الطاهية الخاصـة بالقائد، وطبـقا لأوامره أصـبحت الوحيدة الـتي تحمل له الوجبات التي كـان يتناولها وحده، وأصبح على خـلاف عادته السابقة مع مجلس قـيادته يتناول طعامه على انفراد، ليكثر مـن لقائه بها دون أن يراهما أحد..

وذات ليلة.. طلب الطعام في وقت متأخر، فذهبت إليه فاطمة بوجبة العشاء.. وجدته سكرانا.. قال لها:

- اجلسي هنا...

وأشار إلى كرسي في مواجهتة على مائدة صغيرة، وقال وعيناه محمرتان من السكر:

- اجلسي أمامي.. فأنا الليلة أريد أن أرى وجها جميلا واستمتع به.. هذه ليلتك..

- أشكرك سيدي القائد..ولكنني لا أستطيع الجلوس، وهل يجرؤ إنسان أن يجلس في حضرتك، وأنت القائد المظفر.

ولكنه يصيح في لهجة آمرة:

- اجلسي وإلا..

فسارعت بالجلوس.. فابتلع ما كان يود أن يقوله.. وقام وأحضر زجاجة من الخمر، وصب كأسين، ووضع أمامها كأسا، وأمامه قائلا :

- اشربي.. فالحياة قصيرة، ومسراتها سريعة الزوال والذكي من يقتنصها..

- يقتنصها بالحق والعدل..

- ماذا تقصدين بالحق والعدل هذا!! أنا لم أسمع من يقول هذا سواك..

- لأنني ضعيفة، والحق والعدل هما نصير الضعفاء..

- ولكنك لست ضعيفة، فلقد ملكت شغاف قلبي، ولك سلطان أقوى من أشد الأسلحة فتكا، وأبعد مدى من المدافع..

ثم ينظر إليها ويقول ثائرا :

- لماذا لا تشربين ولا تأكلين..

- كيف أشرب ياسيدي القائد وأنا في حياتي لم أشرب.. أتريد أن تجعلني أضحوكة في هذا المكان..

- لا يستطيع أحد أن يسخر منك وأنا هنا.. من يسخر منك أخبريني فلن يطلع عليه نهار...

ثم يتابع :

- لا داعي لكلمة القائد هذه.. فقد أسرت قلبي من أول لحظة رأيتك فيها.. أنت قنبلة من السحر والجمال لم يخلق مثلها..

- أنت تبالغ ياسيدي، فلست سوى فتاة ضعيفة.. أعمل لأعول أمي، وأصون نفسي..

وتتابع :

- وأنت ياسيدي ألست متزوجا!

- لا تذكريني بمسألة الزواج هذه.. ولا تضيعي هذا الوقت السعيد بسؤالي عنها.. لاتذكريني بشراستها ونزواتها.. لقد هلهلت شرفي خلال سنوات الحرب مع إيران..

- لماذا أبقيت عليها اذا كنت..

يصيح في صوت قاصف :

- لا تذكريني.. واقطعي الحديث.. فنحن نريد أن نعيش ليلتنا وبعدها الطوفان..

أخذ الذعر يدب في أوصالها، كيف تهرب من هذا المأزق، من هذا الوحش المفترس.. يتحدث عن الشرف ونزوات زوجته وفي الوقت نفسه يحاول الوصول إليها، وقام من فوره وكأنه يأمر جنديا تحت إمرته.. فطلب منها أن تقوم ليستند على كتفها ليذهب إلى غرفة النوم.. وادعى أنه لا يستطيع الوقوف لتعبه، وكثرة ماشرب..

وفجـأة يستدير ليحـتويها بين ذراعـيه، وهي تحاول أن تتـخلص منه، موقف لم تحسب حسابه، ولم تتصور أن يصل إلى هذا المدى وفجأة يدق جرس الهاتف. . فيتركها ويجري إليه، وعندمـا يسمع كلمة بغداد من المتـحدث ظل يرددها كالملتاث. . وسمـعته يردد: حاضـر سيدي. . حـاضر سيدي. . الحين سـأعقد لهم اجـتماعـا سأوقظهم من النوم. . سنذهب الساعة،

سأوقظهم سيدي، وأعقد لهم اجتماعا. .

ونادى على حراستـه، وطلب منهم أن يوقظوا مجلس قيادته، والتـوجه فورا إلى قاعة الاجتماعات. .

وأسـرعت فاطمـة إلى غـرفة الإجـتمـاعـات، وأحضـرت "زهرية" الورد التي أعدتها. . وقالت للحارس : إنها هدية مني للقائد ومـجلس قيادته. . وعلينا جميها أن نهيئ لهم جوا يبهجهم ويسعدهم فهم دائما ساهرون في خدمة زعيمهم وأمتهم لايفرقون بين الليل والنهار. .

وكان القـائد أول من دخل إلى غرفة الإجتـماع وتبعه الآخـرون، وكانوا يربطون أزرار ملابسهم وهم يهـرولون إلى القاعة الواسعة، ويدقـون الأرض بأقدامهم، ويؤدون التحية للقـائد وكل منهم يأخذ مكانه حتى اكتملوا، على المائدة المسـتطيلة وفاطمة تقف في ركن مظلم تشاهد وعلى وجـهها ظل ابتسـامة وبعد دقائق من إغلاق البـاب عليهم دوى انفجار هائل في غرفة الإجتماع، وكان الاجتماع الأخير. .

وانطلقت فاطمة خـارج مبنى القيادة، وفي أعمـاقها صوت يصرخ لقـد انتقمت لنورا وجدها. . وأسرعت إلى فيـصل الثنيان لتهنئته وزملائه بنجـاح العملية، وقد تمت بفضل تدبيرهم، وحسن إعدادهم. .

***

توصلت استخبارات المحتل إلى أن المحرك لكثير من العمليات الفدائية الهامة هو شخص يدعى فيصل الثنيان ومجموعة معه، عن طريق أحد عناصرهم الذين جندوا قبل الإحتلال. . ووعدت من يأتيهم بخبر هذا المقاتل الشرس بجائزة كبيرة. . ولكن أين يجدونه، وكيف تصل أيديهم إليه!! وقد كان كالزئبق لايظهر في مكان إلا ويختفي سريعا حتى بين المواطنين. . . بحثت عيونهم التي رصدوها عنه في كل مكان، ولكنها جميعها باءت بالفشل، وصار شبحه يهدد جنود الاحتلال في كل مكان يتواجدون فيه. . حتى صدرت الأوامر لهم من قيادتهم الجديدة بأن يسيروا جماعات لا فرادى بعد أن تعرض كثير منهم للإختطاف والقتل، وأن يدققوا في كل من يحيط بهم، وأن يسيروا وأيديهم على الزناد دائما، وأن يحكموا قبضتهم على أسلحتهم بعد أن تعددت حالات خطفه. .

وهكذا تحول الشعب الكويتي إلى جبهة واسعة للمقاومة، وصار الحمل - الذي كانوا يظنونه - ذئبا مفترسا. . وفي كل مكان لم يبخل الكويتي بدمه يطهر به كل شبر من أرض الوطن الذي اغتالته الأيدي الآثمة، وداست أرضه الطاهرة أقدام محتل باغ دون أن يردعه خلق أو جوار، أو صلة دم وأخوة. .

لقد أصبح فيصل رمزا من رموز المقاومة الباهرة العنيدة، ولكن كيف الوصول إليه؟

اجتمع مجلس القيادة الجديد بعد أن نقل مقر قيادته إلى فندق آخر على شط الخليج، وأحاطه بالدبابات والسيارات المصفحة، ولم يسمح لأحد بالعمل فيها إلا لطاقم استورده من العراق، وزيادة في التعتيم على ماحدث من نسف مقر القيادة منع أي إنسان من الاقتراب من الفندق الذي كان مقرا للقيادة السابقة التي نجحت الفدائية -فاطمة- في نسفه والقضاء على أفرادها. . وكانوا أكثر من خمسة عشر ضابطا من أبرز قوادهم. .

اجتمع مجلس القيادة واستقر رأيهم على القبض على أسرة فيصل الثنيان وجميع أقاربه وتعذيبهم رجال ونساء حتى يضطر أن يسلم نفسه لينقذهم . .

وبعد بحث طويل من عيونهم السرية عرفوا منزل فيصل، فاتجهوا إليه في مظاهرة عسكرية، وحشد طابور من الأسلحة المتحركة بهدف إرهاب الشعب المناضل . . قبضوا على من وجدوه بالمنزل . . وهما والده ووالدته العجوزان . . وبدأت سلطات الاحتلال تذيع أخبار تعذيبهما حتى يقرا بمكان ابنهما . .

ووقف الشعب الكويتي عاجزا أمام هذا العمل البربري . . وأخذ يدعو الله أن يلهم الرجل وزوجته الصبر على هذا البلاء الذي نزل بهما . . ولكن لو عرف الشعب الحقيقة لامتلأ فخرا بهذه الأسرة الصامدة . . فقد قال الرجل في إصرار، وهم يطفئون في جسمه الناحل السجائر المشتعلة، ويغالب الألم القاتل :

- افعلوا ماشئتم . . فأنا فخور به، ولو عرفت مكانه ما أخبرتكم ولو نزعتم جلدي عن عظامي وأحرقتموه!! كيف أجعل من ابني قزما بعد أن صار هذا البطل الذي يخيفكم!!

وقالت أم فيصل أكثر مما قال زوجها: كنت أحس به بطلا منذ صغره . . فكيف لمن أنجبت بطلا أن تزدريه وتسلمه لأعدائه، إن مافعله عمل مشروع، ولو أعرف مكانه لما أخبرتكم، ولو نزعتم شعري واحدة وراء أخرى، وأظافري أيضا وعيني، فهو أغلى منها، ونحن مستعدان للشهادة والموت ولكنني أخاف من شيء واحد أن تأخذه رأفة بنا فيضطر لتسليم نفسه . .

ويصفعها أحدهم فتبصق في وجهه، ويدفعها فتقع على وجهها وتسيل دماؤها فتقول في سخرية :

- حتى ولو قتلتموني وزوجي فسنذهب إلى الله راضين بينما ستحل عليكم اللعنات، ألا تخشون الله.. أتحسبون أنفسكم مسلمين أيها التتار!!

وتهلل سلطات الاحتلال، وتعلن أن خطتها العبقرية قد أدت إلى القبض على المدعو فيصل الثنيان.. ووصفته بالإجرام، ،ولم تذكر أنه سلم نفسه طواعية واختيارا في شهامة لإنقاذ والديه.

واختارت إدارة استخبارات المحتل أبرع رجالها لإستجوابه وإخراج مافي جعبته من أسرار، ومن شركاؤه ومعاونوه الذين نفذوا كثيرا من العمليات الناجحة والتي أصابتهم في مقتل، وأربكت خططهم.

يسأله مدير الاستخبارات:

- ما اسمك؟

- لقد أخبرتكم عندما سلمت نفسي..

- وما يدرينا فربما خديعة أخرى، ولعبة من ألاعبك؟!

- إذا كنتم غير مصدقين، فهذه هويتي..

ينظر فيها، ثم يرميها بعيدا فتسقط على بلاط الغرفة قائلا:

- هوية خسيسة كصاحبها، ومن أصدرها..

يحاول فيصل أن ينحني عليها ليأخذها فيصرخ فيه:

- لا تتحرك إلا عندما آمرك أيها الجبان.

- أنا لست جبانا وأنت أول من يعرف هذا..

- بل جبان وطويل اللسان.. وعندما أقول هذا لا تراجعني. وإلا سأقطعه لك.

- ما عملك..

- موجود بالهوية..

يأمر الجندي الواقف أمامه بإعطائه الهوية، فـيأخذها منه ثم يرمي بها تحت أقدامه ثائرا:

- هذي هويتك اللعينة.. أجب عن سؤالي..

- مدرس..

- مدرس ماذا ؟

- مواد اجتماعية..

- وماهي المواد الإجتماعية هذه التي تأكل من ورائها الخبز!!

- تاريخ.

- ألم يقل لك التـاريخ أن هذه الأرض ملك لنـا وتابعة لـلعراق منـذ الخلافـة العباسية..

- ولماذا هذه الأرض وحدها.. لقد كـانت تضم الخلافة شعوبا كثـيرة، وكانت رقعتها تمتد من المحيط الهندي حـتى المحيط الأطلسي.. فلماذا تفكرون في استعادة هذه الأرض بالذات، لقد كـانت إيران جزءا منها، والجـزيرة العربية، والشام.. وغـيرها.. ألأن بها النفط.. وبها شعب مسالم!!

ويقاطعه رئيس الإستخبارات صائحا :

- إننا نملك النفوط والتمـور، وأربعين مليون فدان قابلة للزراعـة يرويهما أعظم نهرين في العالم دجلة والفرات..

ويستمر فيصل وكأنه لم يسمع شيئا :

– بهذا المنطق الذي تراه فأنتم جزء من أرض فارس أيام الأكاسرة ومن حق إيران أن تفعل مافعلتم. . فبهذا المنطق أيضا من الممكن أن تدعي انجلترا أنكم من أملاكها. . وكذلك تدعي أن ثلثي العالم تابع لها بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية، ألم تكن من مستعمراتها والهند والصين وأغلب جنوب شرق آسيا ودول كثيرة من أفريقيا. . وتدعي هولندا أن شعب أندونيسيا من أتباعها. . كما أن منطق اسرائيل بالادعاء بأن أسلافهم كانوا هنا منذ ثلاثة آلاف عام صحيح، فهل هذا منطق!! فالعالم يتغير ويتجزأ، فإذا استقر الوضع على أمر دون عدوان على حقوق الآخرين كان وضعا سليما. . وليكن منطقنا دائما فلنعش ولندع غيرنا يعيش. . هذه هي الحقيقة التي من الممكن أن تهيئ للأمن والأمان أن يدخلا إلى ربوع هذا العالم المضطرب المذعور من الأخرين. . فإن العالم الذي نعيشه الآن مجتمع لا يليق بالإنسان المتحضر. . هو أقرب إلى عالم الغابة. . من يملك سلاحا وقوة يفترس غيره. . أليس هذا واقعنا اليوم، وهذا ما حدث منكم!!

وينتفض رئيس الاستخبارات، وكأنما أزعجه أن يكون فيصل بارع الحجة والمنطق، وأن يضطره إلى الإنصات وأن يستولي على لبه فيقول صارخا ومموها ومبتعدا عما أثاره فيصل:

– أنا لم أسألك عن تاريخ انجلترا وهولندا وأندونيسيا. . وإنما أسألك عن سبب خروجك على القانون، والتهم الموجهة إليك بمناوأة الحكم والاعتداء على بعض أفراد الجيش المظفر والقضاء عليهم في أكمنة نصبتها مما أدى إلى قتل أكثر من خمسين فردا بين جندي وضابط وقائد بجانب الأسلحة التي دمرت. .

ويسود صمت طويل يقطعه رئيس الاستخبارات قائلا في تقريع:

- لماذا لا تجيب أيها المدرس وقد جعلت من نفسك فيلسوفا تنظم العالم، وتضع له القوانين ليعيش.. تكلم وإلا قطعت لسانك..

ويجيب فيصل في هدوء:

- ماذا تريدني أن أقول، وقد وضعتم هذه القائمة من الادعاءات. إن كل دعوى تحتاج إلى دليل والدليل إما اعتراف أو شهادة شهود؛ فإذا كان لديكم شهود فأنا على استعداد لمواجهتهم، فأنا لم أفعل شيئا يخالف القانون..

- أي قانون تقصد!!

- طبعا قانون بلادي.. والقوانين التي ارتضاها العالم بأسره..

- العراق تقصد ببلادي أم..

ويقاطعه فيصل باسما وساخرا:

- أقصد دولة الكويت طبعا..

ويصرخ الرجل في وجهه:

- ليس هناك على خريطة العالم دولة اسمها الكويت.. وحذار أن تستثير غضبي..

- إنك تسألني وأنا أجيب بقدر معلوماتي.. كما أنني لن أخرج من جلدي فهو كويتي.. ولن أستطيع أن أخرج منه مدى الحياة ولو حاولت ذلك..

و يقاطعه الضابط ساخرا:

- و هل كان لكم قانون.. حتى..

و يبتسم فيصل ساخرا و مقاطعا:

- نعم... لدينا قانون و دستور من أرقى دساتير العالم و سيظل..

ويقاطعه صائحا:

- ما معنى وسيظل؟! معنى هذا أنك خارج على الدولة والقانون وتناوئ الحكم..

- أي دولة وأي حكم؟

ويصرخ فيه الضابط :

- أي دولة وأي حكم.. العراق طبعا، العراق الخالد...

- إنك يا سيدي رغم ما تملكه من قوة وسلطات تستطيع بها القضاء على في لحظة واحدة، فإنني لا أخافك، ولن تستطيع أن تغير هويتي.. ولن أعترف ولن أخضع إلا لقانون وسلطة بلادي

و ينتفض مدير الإستخبارات فيقول في ثورة:

- إذن أنت تعترف بأنك تقف ضدنا.. إذن كل التهم الموجهة إليك صحيحة...

- من وجهة نظركم وحدكم.. ولكن العالم كله يؤمن بحق الدفاع عن النفس.. فلو كنت قد ارتكبت كل ما تدعون أو بعضه فهو عمل شرعي و قانوني.. ولا تظن أنني أخاف الموت، فالموت أهون الأمور على الشجاع.. وكل إنسان سيلقى مصيره إن لم يكن اليوم فغدا.

- وما دمت لديك الشجاعة، فأخبرنا بأسماء شركائك أو مجموعتك؛ ما دام الموت هينا عليكم، ولا تخشونه..

ويبتسم فيصل ساخرا ويقول في هدوء:

- أنا لا شركاء لي.. ولامجموعة كما تقولون.. وكل ما تتهمونني به اعتَبرْه من فعلي وتدبيري.. ألا يسرك هذا الاعتراف!

- أنا طبعا يسعدني شنقك أو قتلك، ولكن ليس قبل أن نعرف مجموعتك هذه.. إن عيوننا متتشرة في كل مكان، وسننتزع منك أسماءهم إذا لم تخبرنا بهم طواعية، فوسائل التعذيب لدينا مشهورة بقسوتها وضراوتها.. فالأفضل لك أن تعترف قبل أن نرغمك على الاعتراف.. وإذا لم تنجح وسائلنا هنا.. فسوف نرسلك إلى بغداد لتذوق أشد منها قسوة، وسوف نمزق جلدك، ونطحن عظامك حتى تعترف عن مجموعتك، أما إذا اعترفت وذكرت لنا أسماءهم خففنا عنك العقاب، بل وربما عفونا عنك، وجعلناك من رجالنا.. فما رأيك؟

ويسود صمت طويل فيظن الضابط أنه بسبيل الاعتراف، فيبتسم ويقول:

- هذا شأن العقلاء.. فماذا يفيدك العناد، كما أننا سنعرفهم اعترفت أم لم تعترف.. المسألة كما ترى مساله وقت ليس إلا..

وأخذ يكرر ما يقوله أكثر من مرة، ولكن فيصل يقول في هدوء أثاره:

- ثق أنني لا أعرف شيئا عما تقول.. ولا مجموعة لي بالمرة.

ولكنه يقول في انفعال:

- ولتثق أنت أيضا أننا سنصل إليهم، وسننتزع أسماءهم من لسانك واحدا واحدا.. أتظن أنك قادر على الوقوف أمامنا!

ثم يأمر الجنود أن يأخذوه إلى غرفة التعذيب حتى يقر بأسماء مجموعته.. وأسر إليهم ألا يبالغوا في التعذيب حتى لا يقتلوه فهو دليلهم الوحيد إلى هذا العالم السري الذي بدأ يتحرك ويقض مضاجعهم.

وحاول زبانية التعذيب معه بكل وسيلة، واستخدموا وسائله التي تعجز عنها الشياطين.. ولكنه استسلم لهم دون أن تصدر منه كلمة أو مجرد إشارة تدل على الألم أو الإحساس بما يعانيه وكأنما نسي أن له جسم تطفأ فيه أعقاب السجائر، أو يتعرض للصدمات الكهربائية، وخلع للأظافر... حتى يئسوا منه، وحتى لا يلصقوا بأنفسهم تهمة العجز في مواجهة فدائي عنيد قرروا إرساله إلى بغداد لتتولى الإدارة الرئيسية استجوابه بنفسها ومعه تقرير يقول بأنه المحرك الرئيسي للمقاومة السرية، وأنها بذلت جهدا كبيرا حتى وصلت إليه.. ولكنه أغلق فمه عن الكلام.. فربما يكون لدى الإدارة العامة من الوسائل ما يجبره على الكلام.. والكشف عن أعوانه بعد أن اشتعلت المقاومة، وأصبحت تشكل خطرا كبيرا.

***

يقول فالح الشويخ للجوهري:

- لا سبيل أمامك سوى أن تأخذ لبنى وتخرج من هنا قبل أن تتطور الأمور بعد القبض على فيصل حتى لا تحدث كارثة.. اذهب بها إلى الإمارات أو أي مكان.. أو اذهب بها إلى والدتك في دمياط إنها ستسعد بها.

- لا تتصور يا فالح ماذا حدث لنا بالمستشفى.. لقد بكت لبنى كثيرا حتى أنني أخاف عليها فقد أصيبت باكتئاب.. وتظل تبكي وهي جالسة وحدها في الظلام.. إن ما حدث صدمة شديدة على أي إنسان، فما بالك بإنسانة رقيقة مثل لبنى!!

ويحكي له ما حدث لهما عندما ذهبا إلى المستشفى لمراجعة الطبيب بشأن الحمل.. وعندما سألها عن جنسيتها وأخبرته بأنها كويتية انطلق في إهانتها وسبها بأفحش الألفاظ.. وطردها من المستوصف ومزق أوراقها التي تراجع بها قائلا في بذاءة:

- ابحثي عن دولة بهذا الاسم، واذهبي للعلاج بها..

- لقد بكيت بجانبها وكأنني يتيم فقد والديه.. ماذا نفعل إزاء هذه الظروف فهي أصعب ما مر بنا في حياتنا، إن الموت أهون من هذه الحياة البغيضة التي نعيشها الآن!!

- لست وحدك، وليست لبنى وحدها.. فكل أهل الكويت يتحملون فوق طاقات الاحتمال.. أهناك أقسى وأصعب من أن تعيش داخل وطن محتل.. ألا تدري ما هو الاحتلال وأنت الشاعر!! إنه اغتصاب أوسع مما تعارف عليه البشر من هذه الكلمة، حيث تعامل كأنك رقيق في عصر تجاوز فيه الإنسان هذه المهانة الإنسانية وأن تنسى كبرياءك وكرامتك، وأن تتنازل عن رجولتك، وأن يمزق شرفك ولا تستطيع أن تتكلم..

و يقاطعه حامد الجوهري ثائرا:

- إنني من اليوم سأخرج بالسلاح، و سأقتل كل من يقابلني من هؤلاء المحتلين..

- يا جوهري أخرج طفولة الشاعر واندفاعه من إهابك.. فما نقوم به يقض مضاجعهم، ويقلقهم، إنهم يتمنون ما تود أن تفعل فسوف يقضون عليك في أول مجابهة.. ولكن العدو السري الذي لا يُعرف حجمه أو استعداده أو مكانه يُرهب العدو أكثر من العدو الماثل أمامه.. وهذه هي قدرته وقوته..

- ولكن فيصل ذهب وكان قائدنا وقوتنا..

ويقاطعه المنزلاوي قائلا:

- إذا كان فيصل الثنيان قد استطاعوا الوصول إليه فإن الكويت تموج بالأحرار أمثال فيصل، ولقد حل فالح الشويخ مكان فيصل في القيادة وقد خطط للقيام بعدة عمليات كبيرة، وإن كنا في هم لا يفارقنا بسبب ما حدث لفيصل، ولكن ماذا نفعل فهذه هي طبيعة الكفاح والمقاومة.

- ولماذا لم تخبرني بهذه التطورات؟! إنني لا أنام الليل إشفاقا على ماحدث لفيصل، ولكنها كما قلت طبيعة المقاومة.. فليس لنا سوى الصبر والجلد.

- كنت يا جوهري مشغولا بلبنى ولا شك أننا كنا سنخبرك.

ويسود صمت فيقول محمود أيضا:

- الأفضل أن تبتعد عن هذا الجو بأي طريقة كانت، لأنها لو بقيت فلا ندري ماذا سيحدث لها!!

- وأترك مكاني معكم.. هل هذا معقول!

- قلت لك بأن الكويت ذاخرة بالرجال، ولن ينقص عدد الثائرين برحيلك والمهم أن تكون لبنى بمأمن، وأن تبتعد عن هذا الجو الكئيب الذي سجنت فيه. . فتوكل على الله وارحل في أقرب فرصة ممكنة قبل أن تتعقد الأمور ولا تستطيع الرحيل، ولا نعرف ماذا يحدث لها. لقد وضعت آمالها في طفلها الذي لم يخرج إلى الحياة، وكانت سعيدة تكاد تطير من الفرح، وفجأة انهارت كل أحلامها وآمالها. . انقذها يا جوهري بأي وسيلة. . أنا أعرف أنها سترفض أن تترك وطنها وهو في أزمته ولكن الظروف أقوى منا جميعا. . وهناك أولويات يجب أن نرتبها. . . وسأتولى معك إقناعها. . وقد نستعين بفالح الشويخ إذا لم تستجب.

- يعز علي أن أترك الكويت الحبيب في هذه المحنة.

- إن الكويت عزيز على العرب جميعا، وكما وسع صدره كافة العرب فإن صدورهم جميعا ستحميه، وستطرد الباغي، وإن غدا لناظره قريب.

- سأرحل ولكن إلى عودة بإذن الله. .

* * *

لم تستسغ لبنى فكرة الخروج من الكويت وتركها في هذه الظروف الصعبة التي لم تواجه مثلها من قبل.. ولكن مَنْ حولها بما فيهم فالح الشويخ أقنعوها بأن للضرورة أحكام..

وضعت أغراضها، وبعض ما جمعته لطفلها في سيارتهما الكبيرة الجديدة التي كانا قد اشترياها قبل الغزو بأيام.. وقفوا في «صفوان» للتفتيش... وطلبوا منهما النزول من السيارة، وإفراغ كل ما بها، فتذمرت لبنى من هذا التعنت فقال الرجل:

- وأيضا فتح الحقائب ونزع ما فيها على الأرض، وتركه حتى يأتي دوركم في التفتيش..

وظلا في انتظار هذا التفتيش أكثر من خمس ساعات فقال حامد:

- إنه سمعك، وأنت تتذمرين على طلباته فأراد أن يعاقبنا.

بكت لبنى من هذه المعاملة الشاذة، وأصابتها الحسرة وهي ترى ما أعدته لطفلها ملقى على التراب والرمال تدوسه الأقدام.. أمعقول هذا.. أن تتدنى المعاملة البشرية حتى تكون بهذه الصورة.. أن تتحول أحلام الحكام إلى كابوس يجثم على نفوس البشر بهذه الصورة وأن يتحول البشر العاديون إلى آلات بغيضة لتجسيد أحلامهم، وسياطا في أيديهم للتنكيل بالآخرين دون ذنب أو جناية!!

وذهب الجوهري يطلب منه أن يأتي بعد أن نفذ طلباته كاملة فقال في غطرسة:

- لن آتي قبل أن تؤدب الحرمة التي معك...

ثم يضيف ساخرا:

- أنا لو مكانك لتزوجت عليها فورا.. ماذا يعجبك فيها!!

ثم تركهما قائلا في أسلوبه:

- اغربا عن وجهي، واتركا ما في هاتين الحقيبتين..

وكان ما فيهما أثمن ما ادخرته لبنى لطفلها...

وبعد أن غادرا أخذ الجوهري يهذي، ويقسم أنه لو كان وحده لقتله وليكن ما يكون وأن ما دعاه إلى كظم غيظه وجودها معه، فهي أعز عليه من نفسه.. وظل يردد أبياتا من الشعر تدعو إلى الصبر والجلد في مواجهة هزيمة النفس أمام المحن والخطوب..

حاول أن يعطيها بعض الطعام، ولكنها رفضت أن تتناول شيئا قائلة:

- إنني أفضل الموت على هذه الحياة المهينة.

- يا لبنى.. هذا ما يريدونه، أن نشعر باليأس والإحباط.

- وماذا تريدني أن أفعل بعد أن رأيت أحلامي تتبخر هكذا... أيسعدك ما نلاقيه.. وكأنه جحيم يلاحقنا في كل مكان!!

وفي مدخل مدينة العمارة تبرز لهما مجموعة أخرى للتفتيش كانت أسهل في التفتيش من سابقتها، ولكنهم طلبوا مقابلا لهذا مسجلا للبنى كانت تعتز به لأنه هدية من فيصل الثنيان.. ولكن لا أحد يستطيع أن يعترض.. إنه غصب ولكن بطريقة لم يكن فيها خشونة أو أمر..

ويبدو أن السهولة كانت تخفي وراءها ثمنا باهظا، فقد طلبوا من حامد الجوهري أن يأخذا معهما ضابطا في طريقهما إلى بغداد.. لم يستطع حامد أن يتفوه بالرفض أو القبول ولم ينتظروا منه أي تعليق على قرارهم هذا بعد أن تحولوا فجأة إلى محتلين وسادة وجميع الكويتيين والعرب المقيمين إلى عبيد، فقدوا القدرة على الكلام.

فماذا تقول إذا صحوت من النوم فرأيت أخاك يرفع بندقية في وجهك بلا

سبب.. فماذا تقول له: أتقول له إنني أخوك.. إنه يعرف هذا.. أتقول له: أن هذا لا يجوز بين أخوين.. إنه فقد الإحساس بهذه الصلة، فقد مزقها قبل أن يرفع في وجهك سلاحه!

خرج الضابط من المبنى، ووقف يتأمل السيارة، ويبـ.ي إعجابه بها، ودار حولها مؤكـدا هذا وأخذ يهز رأسـه، وينظر إلى من بداخلها نظرة عابـرة، وكأنهم لا يعنونه، وفتح بابها وقال لحامد الجوهري:

- اجلس بجواري وسأقود أنا السيارة..

وينظر حامد إلى لبنى نظرة اليائس، فيراها كـوردة ذابلة فيشفق عليها.. ويطلب منها أن تجلس في الخلف حتى يحقق رغبة الضابط في قيادة السيارة..

وتنطلق السيارة في اتجاه بغداد بوضعها الجديد، ويقول الضابط:

- سيارة رائعة.. ملك من منكما؟

ويسود صمت، ولكن الضابط يستحثهما على الإجابة بصورة شبه آمرة.. فيقول الجوهري متضايقا:

- ملكنا أنا وهي..

ويطلب من الجوهري رخصة السيارة فيضطر إلى إعطائها له، وقد أعماه الانفعال فسقطت على أرض السيارة، وتناثرت أوراق كثيرة..

ينظر الضابط إلى الترخيص ويقول لحامد غاضبا:

- لماذا تكذب إذن.. والسيارة لا تملك فيها شيئا!!

- إنها زوجتي.. والمفرض أن ما نملكه مشترك بيننا..

- مشترك أو غير مشترك.. كنت أود أن أعرف صاحبها لأنني أود شراءها.. فهي سيارة بديعة حقا.. مرسيدس طراز حديث موديل هذا العام..

لم تطق لبنى صبرا فقالت شبه غاضبة:

- ومن أدراك أنني أود بيعها!!

ويجيبها ساخرا:

- أليس من الأفضل بيعها بدلا من مصادرتها..

سكتت لبنى ولم تجب، كان تهديده سافرا، في الوقت نفسه كاد حامد أن ينفجر من الضيق والقهر.. يود أن ينقض على عنقه ليخنقه.. إنه لا يبالي بنفسه.. أو بالموت.. ولكن ماذا سيحدث للبنى.. أين كان كل هذا مختبئا لهما... وماذا يفعل مع هذا الحيوان الذي تجرد من كل الأحاسيس.. ألا يكفي ما هما فيه حتى يلقي بهما هذا المجنون على قارعة الطريق، ويأخذ منهما السيارة، إنه لص متبجح وسخيف بل غاصب متحجر القلب!!

وكأنه كان يعرف ما كان يدور بنفسهما فقال:

- لا تحملا هما لأي شئ سوف أدبر لكما وسيلة توصلكما إلى عمان أو العقبة..

وبدت لبنى متحجرة الملامح تنظر أمامها بلا هدف.. أحست بأن الحياة أصبحت سجنا بغيضا.. بل أقسى من السجن، فالسجين يستطيع أن يتكلم وينفس عن نفسه..

ومرت المسافة الباقية إلى بغداد سريعة، وقد تاه كل منهم في نفسه.. الضابط سعيد لأن الأقدار ساقت له سيارة فارهة.. ولن يستطيعا أن يرفضا أي مبلغ يقدم لهما حتى ولو كان مائة دينار عراقيا.. فما حيلتهما.. لقد كان يود أن يذهب إلى الكويت للعودة بسيارة يحلم بها من التوكيل وبلا ثمن والآن وقد جاءته السيارة فما أسعده..

وأخذ حامد يفكر في الخروج من هذا المأزق الذي لا مخرج منه.. لقد كان أصعب ما مر به.. إنه لا يخاف على نفسه حتى ولو قطع البادية من العراق إلى الشام على رجليه.. ولكنها لبنى وحامل وفي شهرها الأخير.. لقد أطلق الضابط الرصاص عليهما دون مسدس أو بندقية.

ظل الضابط يقطع شوارع بغداد في سرعة قياسية حتى وصل إلى عمارة ضخمة.. وأمهلهما دقائق حتى يعود بثمن السيارة.. وقال:

- إنه سيكافئهما لأنهما حققا له حلمه.. كان من الممكن أن يأخذها بلا ثمن..

ودخل إلى العمارة، بينما أخذ حامد الجوهري يضحك في هيستيرية وانتقل إلى مكان القيادة، وانطلق بالسيارة.. تيقظت فيه روح الفدائي فجأة.. ووجدها الفرصة التي لن تسنح ثانية، وبدا شبح ابتسامة على وجه لبنى.. معجبة بذكاء الجوهري وقالت مشجعة:

- آمنت بأنك عبقري.. ولكن لاحظ أنه ربما يكون قد أخذ رقم السيارة وهو ضابط كبير على ما يبدو، فقد يتصل بالحدود ويستولي عليها ولن يكون انتقامه سهلا...

- ليفعل ما بدا له.. كما أنني أرجح أنه لا يحفظ رقم السيارة فهو رقم كبير، ولماذا يكلف نفسه حفظ أرقامها وكانت في يده، ثم إنه غبي.. فقد ترك مفتاح السيارة فيها..

وتوقف أمام محل لبيع "البويات والحدايد" فاشترى "أنبوبا" و"سنفرة" وتوقف في مكان خال قبل خروجه من بغداد وأخذ يزيل اللون عن بعض أجزاء السيارة ويرشها من الأنبوب، وكرر هذه العملية في أكثر من موضع حتى أخذت السيارة شكلا يختلف

تماما عن شكلها السابق. . زيادة في الاحتياط قررا البقاء في بغداد لمدة يومين حتى ينتهي من البحث عنهما إذا أراد هذا. .

وكانت لبنى حزينة بائسة، فقد تحولت حياتهما إلى قلق، وأصابتها الهواجس. . بتغير الدنيا فجأة إلى هذه الصورة الكئيبة، وأن تتحول أطماع فرد أو قلة من الناس إلى مصدر لشقاء الملايين من البشر، وعلا وجهها شحوب وصفرة، وتملكها خوف، فأصبحت تجفل من أي حركة، ولا تأخذ كفايتها من النوم، فالسيارة مأواهما، وأخذ الجوهري يخفف عنها بحكايات وقصص ويسمعها من الراديو أخبار الحشود العسكرية التي بدأت تحتشد على حدود الكويت، والسفن الحربية، وحاملات الطائرت التي أخذت طريقها إليه لإنقاذه من مخالب الاحتلال، ويؤكد لها أنها ستعود إلى وطنها وبيتها. . وأنها أزمة طارئة وأن كل شعب معرض لهذه المحن، وصلابة الشعب هي التي تذيب كل هذا وتقف كالصخرة في وجه أي معتد والشعب الكويتي في الداخل والخارج صامد لا يلين، وسيكون ما حدث أزمة طارئة في حياة هذا الشعب الواعي. .

وخرجا من بغداد متجهين إلى "الرمادى". . وانضما إلى مجموعة من المسافرين الفارين من جحيم الاحتلال، وطلب حامد الجوهري من أحدى الأسر كثيرة العدد طفلا وطفلة ليركبا معه وفهمت لبنى هدفه من تضليل الضابط إذا أصر على متابعتهما بالإضافة إلى هذا كان الجوهري يريد أن يغير جو السيارة، ويدخل عليه البهجة ومرح الأطفال فلعل هذا يسلي لبنى ويسعدها وساروا في قافلة حتى وصلوا الرمادى، ووقفوا للتفتيش وهناك برز موظف وأخذ يدور حول السيارة ويردد:

- لا يمكن أن تكون هي. . لا. . لا، لا شك أن هذه سيارة أخرى.

وصرحوا لهم بالمغادرة. . وانطلقت القافلة من جديد ولم يبق أمامهم سوى مركز رئيسي للتفتيش في منطقة "الرطبة" على الحدود مع الأردن. . وهناك أخذوا يفحصون

السيارة من جـديد ويهزون رؤوسهم.. وكأنهم يبحـثون عن شيء، ولا يجدونه.. وأن بعض الشك يساورهم في كل سيارة تمر من طراز سيارة حامد الجوهري ولبنى.. ولكن ما فعله الجوهري بالسيارة جعلها تبـدو في صورة غير التي رسمها لهم ذلك الضابط.. ولذلك لم يمانعوا في إعطائها الإذن بالمرور.

***

بعد أن غادرا الحدود العراقية أخذ حامد يسابق الريح وكأنه يفر من جحيم بالإضافة إلى أن الجو قد تغير وأصبح لطيفا إلا أن لبنى بدأت تشكو من آلام كثيرة في بطنها وظهرها وأسرع الجوهري بها إلى المستشفى في مدينة العقبة التي مر بها لأول مرة.. مكثت فيه أياما تعاني آلام وضع مبكر شديدة.. وأصابها نزيف حاد..

وقضى الجوهري أياما صعبة لم يذق فيها طعم النوم سوى فترات متقطعة أثناء جلوسه على مقعد في غرفة الانتظار في المستشفى، وحاول الأطباء معه دون طائل أن يذهب إلى فندق للاستراحة فيه ولكنه أبى إلا أن يكون قريبا من لبنى وعلى بعد خطوات... منها وخرج الطبيب أخيرا من غرفة العمليات متجهم الوجه وقال للجوهري الذي كانت عيناه مركزة على شفتيه:

- حمدا لله على سلامة لبنى وربنا يعوض عليك في المولود.

ما أصعب على الإنسان أن يتبخر الأمل بعد أن ظل يتشبث به قرابة تسعة أشهر.. كان الجوهري يرجو أن يمن الله عليها بمولود يدخل على حياتها بعض العزاء والسلوى بعد ما مر من خطوب أفسدت طعم الحياة، وغلَّفتها بالمرارة والقسوة، ولكنها الأقدار!

إن وقع الأمر على لبنى لن يكون سهلاً، بعد هذا الجهد الذي تعرضت له نفسيا وبدنيا في الطريق وفي الكويت.. لقد مرت الأيام بطيئة ثقيلة وادخرت لها هذه النهاية المريرة.. ودخل إلى لبنى يهدئ من روعها ويهنئها بالسلامة، ولكنها كانت متحجرة الوجه والملامح، تعاني من ضغط نفسي وعصبي شديدين.. إنها لا تبكي ولا تتألم ولكنها لا تتكلم أو تشكو.. ظلت على هذه الحال يوما كاملا.. وأخيرا انتفضت من فراشها مذعورة وقالت:

- أين ابني يا جوهري.. لا يمكن أن يدفن بعيدا عن أرض الكويت أرض آبائي وأجدادي.

وأخذ الجوهري يهدئها، ويؤكد لها أنه سيحـقق لها رغبتها، وشعر ببعض الراحة لأنها لا زالت تعي كل شئ حولهـا، وأن الصدمة الأخيرة لم تذهب بعـقلها.. بعد أن قابلت الكثير.

وأصرت علـى أن يدفن طفلها في أحـشاء أرض الكـ ـت، وأن هذا سـيشـعرها بالراحة ويكون قريبا منها تزوره في أي وقت...

ولكن كيف يمكن تحقيق هذه الرغبة.. وهما في العقبة في الأردن!

ولم يستطع الجوهري أن يهضم الفكرة أو يتخـيل طريقة لتنفيذها، ولكنها طلبت الطفل وألبسته أغلى ما بقي من مـلابس، وطلبت من الجـو هـري أن يجهز السيارة.. وأن ينطلق بها عـبر الحدود السعـودية الذاهبة إلى الكويت واشترت ثـلاجة صغيرة ومـلأتها بالثلج وأدخلت جـسم الطفل في كيس من النايلون يمنع عنه المـاء، كل هذا والجوهري وقف مشدوها كأنما يشاهد حلما..

وطلبت من الجـوهري أن ينطلق بأقصى سـرعة إلى«السـالمي».. حيث تسـتطيع الدخول ثانية إلى الكويت.. وقفت أما الضابـط العراقي الذي يقف على رأس كتيبة من الجند وقال لهما بعد أن أخضعهما لتفتيش صارم، ونظر إلى جوارهما:

- لماذا خرجتما من العراق إلى الأردن.. ثم جـئتما من هنا.. ثم ماذا تحملان؟ جثة طفل.. ما هذه الألغاز!!

ويقول الجوهري في ضيق:

- يكفينا ما نحن فيه يا سيدي.. طفلنا ونريد أن ندفنه حيث يكون قريبا منا.. أهناك مانع؟

وبعد أخـذ ورد، وتفتيـش ذاتي لهما صـرح لهما بالدخـول، وهو ينظر إليهـما متعجبا قائلا في سخرية لزميله:

- لا أظن أنهما أكثر من مجنونين..

ثم يلتفت إليهما متابعا حديثه:

- انطلقا وادفنا حلمكما حيث شئتما، حتى ولو في قاع الخليج.

وتوجها رأسا إلى الصليخات حيث أقاما مراسم الدفن بمساعدة بعض الموجودين في المقبرة، ووقفت لبنى أمام قبر ابنها قائلة:

- أعاهدك يا حلمي الذي وأدوه أن أنتقم لك ممن اغتالوك واغتالوا حلم العرب وكل مظهر من مظاهر النبل والطهارة في حياتنا.

* * *

كانت عودة فيصل الثنيان المفاجئة مثار دهشة وحيرة زملائه ومجموعته.. كيف استطاع أن يفلت من براثن الأسد بعد أن أمسك به، وأن ينجو من الخطر بعد أن احتواه، لا شك أنه إنسان نادر، بل أسطورة ستتناقلها الأجيال.. تركه زملاؤه أياما للراحة.. وطلب منهم توخي السرية والحذر في الاتصال به، وأن يكون لقاؤهم في الليل.. في تمام الثالثة صباحا في نهاية ملعب مدرسة السالمية المتوسطة بجوار السور الفاصل بينها وبين مدرسة هند، وكان هذا هو اللقاء الأول يختارون مكانا آخر بعدها للقاء الثاني.. لرسم الخطط لمواجهة المحتل وإقلاقه وعدم إعطائه فرصة للاسترخاء، وفي كل مرة يختارون مكانا آخر للقاء...

وأخذت الأسئلة تنهال عليه في أول لقاء عن الطريقة التي أفلت بها من بين أيديهم، كان يحاول أن يهرب من إلحاحهم حتى يركز على الخطط الجديدة.. ولكنهم أصروا على أن يذكر لهم ما حدث؛ وبين ليلة وأخرى كان يحكي لهم طرفا من مغامراته العجيبة مع جيش الاحتلال..

كانوا يستطيعون الفتك به.. فما أهونها من رصاصة بندقية وينتهي الأمر، ولكنهم كانوا يريدون زملاءه ومجموعته أو مجموعاته التي يقودها؛ فعيونهم التي بثوها في أنحاء الكويت لقصورها تصورت أن فيصل الثنيان هو قائد المقاومة السرية المنتشرة على أرض الكويت كلها ولم يدركوا أن غالبية الشعب رجالا ونساء تحولوا إلى مقاتلين، إلا أن فيصل لم امتازت به هجماته ـ إذ غلبت عليها الجرأة والدهاء ـ ظنوا أنه قائد المقاومة السرية بأسرها.. ولذلك احتفظوا به حتى يقر باسماء معاونيه ومنهم بالتالي يضعون أيديهم على حركة المقاومة.

وكشف لهم فيصل عن الطريقة التي عاملوه بها وآثارها الواضحة على جميع أجزاء جسمه من حروق وندبات بدت كسطور تسجل القسوة والوحشية.. حتى أظافره

انتـزعوها، ولكنه لم يلن لهم ولـم يظفروا منه بشيء. . فـاضطروا لإرساله إلى بـغداد ليداروا فشلهم معه. . واقـتيد مقيد اليدين في سيارة خـاصة مع جنديين للحراسة لإدارة الاستخبارت العامة هناك. .

قال أحد الجنديين له:

- إذن أنت قائد المقاومـة التي أقلقت قيادة الجيش -الذي لا يقهـر- في محافظة الكويت، سترى في بغداد ما يسرك!!

ويقول له الجندي الثاني محذرا:

- انتبه للطريق أولا، ودع مـا سيحدث له هناك فبـطريقتك هذه سوف لا نصل إلى بغداد جميعا. .

- لا تخف فأنا سائق في أدارة الاستخبارت من عشر سنوات والإدارة تستدعيني للمهمات الصعبة والعسيـرة، وقد حذروني من هذا المتهم، وأخبروني أن رقبتي مرهونة بوصوله إلى الإدارة العـامة. . وقالوا إن هذا المتهم مـاكر وصاحب ألاعيب وحـيل وقد يخدعك. . فلا تجعل عينك تغفل عنه. .

- ما اسمه يا حميد. .

- فيصل الثنيان. .

ثم يتابع حميد بعد صمت قصير:

- على كل حال يا شـاكر أنت تجلس خلفنا ومعك السلاح فـإذا ظهرت منه أي حركة. . فاضرب في المليان، ولكن لا تقتله.

ويردد شاكر:

- فيصل الثنيان يخيل لي أني سمعت هذا الاسم من قبل، لقد سمعته قبل الحرب، ولكن أين. . أين كنت تعمل يا فيصل؟

شجعته لهجة شاكر الودودة فقال:

- في حقل التدريس. .

- أي مادة. .

- التاريخ.

- أنت لست عسكريا إذن. . فلماذا لا تدع ما تقوم به للعسكريين؟

- إن الدفاع عن الوطن واجب كل مواطن. . وليست فرضا على العسكريين وحدهم.

- وما رأيك فيما حدث؟!

ويتنهد فيصل تنهيدة واضحة ويقول:

- تسألني رأيي. . ما رأيك لو احتلت سوريا العراق؟

ويسود صمت. . ويعود شاكر سائلا:

- أين كنت تعمل في حقل التدريس. . أقصد في أي مدرسة؟

- كنت أعمل مدرسا في ثانوية الشويخ ثم أصبحت الآن ناظرا لمدرسة كيفان الثانوية.

- أكان يعمل معك في ثانوية الشويخ مدرس عراقي اسمه. .

ثم يضرب عن تكملة الحديث، ويسود الصمت ثانية. .

ويعقب حميد قائلا:

- ألم أقل لك إنهم حذروني مـن هذا الوغد. . لا تسأله عن شئ فلن يجـيبك عن شيء. . ولو كنت من مدير المخابرات لأطلقت عليه مـائة قذيفة مدفع. . ولأجعلن أكبر جزء فيـه لا يزيد عن حبة رمل بعد ما فعله بأفراد لايحصـون من قواتنا. حصدهم غيلة وغـدرا ولو كان شـجاعا لقـابلهم وجها لوجـه. . احذر كـما قلت لك، ولا تدع البندقية تبتعد كثيرا عن رأسه. .

- مفهوم. . مفهوم. . يا حميد فأنا أعرف واجبي جيدا. .

وتظهر ملامح البصرة من بعيد. . فيقول حميد:

- ما أعظم هذه المدينة. . إنني أحبها أكثر من بغداد، بل من أي بلد في العالم.

- طبـعا أليـست بلدك، ومسـقط رأسك، وأنا لو منك لما غادرتهـا فهي مـدينة تاريخية. . كمـا أنها ثغر العراق، ونافذته على البحر، وتحتـضن أرض التمور. . أجود تمور العالم. . «البارحي» سيد التمور بلا منازع. .

ثم يضيف في رجاء:

- إذن لن تعترض على أن أزور أهلي بالبصرة لمدة ساعة أو ساعتين يا شاكر. . ؟

- براحتك يا حميد. . هذا أقل ما يجب عليك نحو أهلك وربعك، تمر من هنا ولا تراهم. . نحن مقـبلون على حرب مع هذه الأمم التي تحـتشـد حولنا. . ولا ندري ماذا سيحدث. . ليت الظروف تتيح لي هذه الفرصة.

ولم يصدق حـميد خبـرا فاتجه فور دخـوله إلى البصرة إلى المنطقـة التي يسكنها أهله. . وأخبره أنه سيلحق بهما في جزيرة السندباد بعد ساعتين أو ثلاث على الأكثر. .

***

بعد أن انصرف حميد، كانت المفاجأة المذهلة إذ أخرج شاكر مفتاح القيد، وفتحه وقال لفيصل:

- أنت الآن حر يا أخي.. ولا تعجب، فإن لك قصة طويلة معي، فأنت أخي -كما قلت لك- ولكنك لا تدري..

ويتابع فيصل وهو يقص على زملائه ما حدث بينه وبين شاكر فيقول:

- أذهلتني المفاجأة حقا، فهو يناديني بأخيه.. كما أن له قصة طويلة معي.. إنني لم أره من قبل.. إن الأمر أشبه بالحلم، والحلم هو الذي يمكن أن يرى فيه الأنسان الأرض سماء، والسماء أرضا، ويمشي على الماء ويمتطي الهواء.. وقد ساورني أيضا أنه شخص فقد عقله من هول الحرب التي خاضتها العراق مع إيران ثماني سنوات وأكثر..

أخذت أقلب الأمر على وجوهه، ولكنني لم أعثر له على وجه أوظهر أو ذيل.. فقلت لنفسي: لعله يقصد المزاح، فالبندقية في يده، ويستطيع -إن بدرت مني بادرة- أن يعيدني إلى القيد تحت تهديد البندقية، فإذا لم أرتدع فطلقة واحدة تنهي أمري ولن تكن هناك أسئلة أو ملاحقة له على ما حدث، فكل ما يمكن أن يقوله تبريرا: حاول الهرب فقتلته..

أما هدفه من هذا المزاح فقد يكون التسلية.. فحياة الجندية، أوامر وطاعة دون مناقشة أو فهم.. فما المانع أن يمزح الجنود مع فئران التجارب، وجميع أفراد الشعوب المغلوبة أو المحتلة فئران تجارب بل ربما تكون في نظر المحتلين الغاصبين أدنى مرتبة.. وهذه كارثة البشر من يوم آدم حتى الأن.. الإنسان ينتظر الفرصة ليأكل أخاه الإنسان أو يشرب من دمه أو يجرده من عرض الدنيا نهبا وسرقة مقابل حقوق يفترضها لنفسه، ويدعيها دون خجل أو حياء..

جالت هذه الخواطر بنفسي فقلت مازحا أيضا:

- لعلك يا سيدي ألفت قصة في ذهنك تـنتهي بمقتل فأر لا حيلة له، ولا أمل في نجاة.. فأردت أن تدعني أصعد إلى خشبة المسرح ثم تنهي المسرحية بهذه البندقية أو هذا المسدس..

فهز شاكر رأسه وقال جادا:

- إنني لا أفهم مما تقول شيئا، ولا أظن أنني في مثل ثقافتك فأنا خريج مدارس الشـرطة.. أمـا رجال التـعليم فلهم ثقـافـتـهم، ولهم عالمـهم الواسع.. وأنا أجلهم وأقدرهم..

ويحار فيصل بما يقوله شاكر فيقول:

- إذن ماذا تريد مني بفك قيودي..

ويقاطعه شاكر:

- لا تحمل الأمور أكثـر مما تحتمل يا سيد فيصل.. فمـا أقوله ليس مزاحا، ولا يحتمل التأويل.. كـما أن هذه الحرب لا تحظى بتأييد كل العراقـيين.. فهل من المعقول أن يتحول شعب بأسره إلى آلات لتنفيذ أوامر حاكمه مهما كانت صائبة أو غير صائبة.. ولكنها الديكتاتورية التي تئد الصوت المعـارض.. ماذا فعل بنا الكويت حتى نذيقه هذه الأهوال من قتل وتشريد ونهب وغصب.. إن غالبيـة الشعب العراقي ضد هذه الهجمة التترية التي لا مبرر لها... ولكن أين الساحة التي يمكن أن يقف فيها المعارضون.. بعد أن امتلأت بـجثث الذين سبقـوهم، ولكن مع الأسف يبدو أمام العالم، وكـأن الشعب العراقي راض عن هذا الاحتـلال البغيض.. إن الاحتـلال كارثة على الأعداء عند ذوي الفطرة السليمة، فكيف يكون على الأشقاء والأهل؟!

إنها وصمة كبرى في تاريخ العراق.. وستمـزق التضامن العربي، وستتأخر كافة

أشكال التكامل والتعاون العربي لأجيال، وسنظهر أمام العالم وكأننا قبائل بدائية متناحرة!

كنت مذهولا بما أسمع و بماحدث فسألته وأنا أشد على يده:

- ولكنك تخاطر بحياتك مقابل ما فعلته الآن معي.. قد تكون نظرتكِ للأمور طبيعية وإنسانية.. ولكنني حتى الآن لم أجد ما يقنعني بإقدامك على هذه الخطوة الجريئة دون ندم، وأنا لا أريد أن أستغل شهامتك.. فسوف تدفع ثمنا غاليا، كما أود أن أشعر بأنني لست في حلم، ولكنني متيقظ، و أن هذه هي الحقيقة..

فضحك شاكر وقال:

- إنني سأعطيك الدليل الآن حتى لا تذهب بعيدا.. أود أخيرا أن أعرفك بنفسي، وكان المفروض أن أبدأ بهذا، و لكن الحديث جرنا إلى نواح بعيدة.. فأنا شاكر السامرائي شقيق كاظم السامرائي.. هل تذكره؟

و يتابع شاكر و قد امتلأت عيناه بالدموع:

- ألم تعطه دمك يوم حادثة الأحمدي.. ألم أقل لك إنك أخي!! لقد أخبرنا بكل شيء، وشهامتك معه، فظل اسمك في ذاكرتي لا يضيع.

و يقوم فيصل ليعانقه.. مرددا:

- فعلا.. إن ما تقوله حقيقة، ولكنها أغرب منَ الخيال.

بينما يقول شاكر:

- إن الخير لا يضيع أبدا، حتى لو ألقيت به في المحيط!!

ثم يتابع في أسى:

- ألا تعرف شيئا عن مصير كاظم.. إنني لم أعثر علي أحد يخبرني إذا كان حيا أو ميتا.. فقد كانت زوجته وأولاده في العراق قبل الاحتلال، وكان وحده موجودا بالكويت، وجئت أكثر من مرة أبحث عنه في مسكنه، ولكنني لم أعثر له على أثر..

ويروي له فيصل قصة كاظم، وكيف استشهد وهو يقاوم احتلال بلده.. فيبكي أخاه ويقول:

- لقد كان أخي وأبي في نفس الوقت..

- رحمه الله رحمة واسعة، لقد كان رجلا جديرا بالاحترام.

- لقد كان هذا الاحتلال وبالا على العراق أكثر مما كان وبالا على الكويت وها هي الدول بل العالم كله تقريبا يتجمع بأسلحته في البر والبحر والجو لقتالنا إذا لم نخرج صاغرين.. وأنا أدرك حسب معلوماتي ومعرفتي بحكامنا أنهم لن يخرجوا من الكويت إلا مرغمين.. فقد دخلوها يدرأون بها عجزا وتغطية لثماني سنوات من الحرب مع إيران، وظنوا أنهم يقدمون رأس الكويت على طبق من ذهب تعويضا عن الدمار والخراب، ومئات الآلوف من الشباب الذين ضحوا بهم على مذبح أحلامهم وأوهامهم.. فلم يجدوا سوى الأخ الشقيق المسالم ليذبحوه، وظنوا أن الأمر سيكون نزهة، ولكن السماء ملبدة بالغيوم السوداء الكثيفة، وهم يظنونها أو يوهمون الشعب بأنها مظاهرة كاذبة، ولكني أرى أنها ستكون كارثة..

ثم يقول وهو ينظر إلى ساعته:

- لقد سرقنا الوقت، وآن لك أن تمضي قبل أن يأتي حميد، وأنا سأوصلك الآن إلى مكان قريب من جزيرة «فيلكا»، وهي أقرب مكان من هنا، وهناك تدبر أمرك فستكون على أرض كويتية..

ويتابع فيصل:

- واصطحبني في السيارة، واشترى لي الملابس والطعام وأوصلني إلى من عهد إليه ليوصلني إلى جزيرة «فيلكا» على أساس أنني تابع للاستخبارات، ولا بد من نزولي في الجزيرة في أقرب وقت..

وكان لا بد لي أن أطمئن على مصيره بعدما فعله معي فقال:

- اطمئن.. فكما قُلتَ قبل هذا.. إنهم لا يحاسبوننا على فئران التجارب.. وسأنتحل أي عذر، وما أسهل الأعذار في هذه الأمور، وما أسهل على أن أخبرهم أنك حاولت الهرب بأن ألقيت بنفسك في مياه "شط العرب" فصرعتك بالرصاص، وأن الجثة موجودة بمشرحة البصرة.. من يتحرى الحقيقة في بلاد هذه حالها، يكفي أن تهتف بحياة الزعيم، وينتهي كل شئ فهو الأول والآخر، وهو فوق كل شئ.. ما أبغض الديكتاتورية!!

ومرت رحلتي إلى جزيرة فيلكا خلال مياه الخليج سريعا، لأنني كنت لا أزال أعيش داخل قطر الدائرة التي خطها شاكر السامرائي برجولته وأخوته وفهمه الصحيح لحقائق الأخوة والجوار، وتقديره للمعروف والجميل.. وحزني لما أصابه من اكتئاب وأسى لفقد أخيه، وبسبب هذا الاحتلال الذي حط كطائر النحس والشؤم على الخليج بأسره.. كما أنني أصبحت أسير معروف عائلة السامرائي من الآن وحتى آخر يوم من حياتي.

ويواصل فيصل حكايته مع المحتل وقد امتلأت عيناه بالدموع:

- وعندما وضعت قدمي على أرض جزيرة فيلكا شعرت بأن قامتي ازدادت طولا، وأدركت أن أرضنا أرض الخير، وأن ما زرعناه من أخوة وصداقة وحب.. فإننا نجني ثماره في هذه الأيام، وأن هذه المحنة التي نمر بها الآن جعلتنا ندرك أننا كنا على

صواب، وأن مـشاعرنا نحو أشـقائنا كانت كنزا مـدخرا لنا، فهؤلاء إخـوتنا في العالم العربي والإسلامي يرسلون شبابهم بأسلحتـهم مع شعوب العالم المتمدن -الذين أثارهم عودة الانسانية إلى جهـالتها، وأسلوبها العتيق في الغزو والهمجيـة، فهبت مع الأشقاء لردع هذا العدوان الأخرق.. أليس هذا فخارا لنا، وعلينا ألا ندع العدو يهدأ أو يستريح لليلة واحدة..

***

سأل فيصل الثنيان فالح الشويخ عن مجموعة من الشباب، وأصبح لا يراهم وهم الروضان، والمشاري، والجمعة، والشملان. وقال في ضيق:

- أين ذهبوا، ولماذا لا يحضرون لقاءاتنا؟

فيجيبه فالح في حزن وأسى:

- لم نشأ أن نستقبلك بالأنباء السيئة.. فنحن نعرف مدى حزنك لفقد أي فرد من المقاومة، وندرك وزن كل منهم لديك، بعد أن قاموا بعمليات بطولية وفدائية ستظل ذكراها حية مهما تعاقبت الأيام والسنين، فمن من الكويتيين ينسى الروضان وقد استطاع أن ينسف سيارة مصفحة بقنبلتين يدويتين في أقل من دقيقة، وينجو منها جندي واحد يطلق عليه الرصاص.. أمام منزله عندما جاءوا للقبض عليه.. فاستشهد قبل أن ينالوا منه.. وهكذا مضى ونحن في أشد الحاجة لجرأته وبسالته..

ويقول وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

- رحمه الله رحمة واسعة لقد كان رغم شجاعته الفائقة يملك قلب طفل يمتلئ بالحنان والحب، ومضى كبطل.. لقد كان ثروة قومية، عوضنا الله فيه خيرا..

وقبل أن يسأل فيصل عن الباقين قال فالح:

- عرف أصدقاؤه المشاري والجمعة والشملان أن الروضان ذهب بوشاية أحد عيون الجيش المحتل.. فقد رآه أحدهم متخفيا يتسلل إليهم تحت جنح الظلام وأمسك بهذا الخيط، وظل يتبعه حتى عرف أنهم يلتقون به في مزرعته في مكان بعيد قريبا من الحدود، ويبدو أنه كان مجندا في استخبارات العدو قبل الاحتلال بمدة طويلة.. لأنه اكتسب الجنسية (وكان بدونها) منذ سنوات قليلة كما عرفنا من تحرياتنا بعد استشهاد الروضان..

وصمم الثلاثة على الانتقام، وأن يكون انتقاما يوازي حجم البطل الشهيد.. فأخذوا يتتبعون كل حركة لهذا الخائن.. وجاءتهم الأخبار بأنهم سيقضون ليلة العيد في مزرعة هذا الخائن.. الذي أعد لهم كل ما يشتهون من طعام وشراب حتى النساء أحضرهن من البصرة في سيارة عسكرية ذهابا وإيابا.. وعرفوا من مصادرهم أنهم سيأخذون طريقهم إلى المزرعة في التاسعة مساء، فسبقوهم إلى هناك حيث اختاروا مكانا قريبا يستطيعون منه أن يراقبوهم دون أن يروهم..

وأصر حمد الروضان ابن البطل الشهيد على أن يذهب معهم ليشهد انتقام إخوان والده وشركائه في الكفاح من أعداء الوطن، وطلب منهم أن ينضم إلى المقاومة فاشترطوا عليه إذا أصر على رغبته أن لا يحمل معه سلاحا في أول الأمر، وأن يشاهد المعركة عن بعد وأن يلجأ إلى أقرب بيت إذا أحس بالخطر.. وأن لا يسلك الطرق المرصوفة..

وجاء الخائن ومعه ضيوفه.. وبدأوا حفلهم، ويبدو أنهم كانوا يقيمونه أسبوعيا.. فكانت العبارات تتناثر منهم وسط سكون الليل:

- لماذا لا نقيم الحفل في قصر من القصور التي استوليتم عليها، بدلا من أن تأتوا بنا هنا كل أسبوع، وكأننا لم نجد بين الناس مكانا لنا.

ويرد صوت آخر:

- فعلا.. أنا كل أحلامي أن أرقص بين الناس فلماذا نترك العاصمة ونرحل لأرقص أمام عشرة أشخاص أو أقل، وكأنني راقصة قطاع خاص...

ويجيبها صوت آخر:

- يا عيب الشوم.. هذا والله ما يصير!!

وتتردد ضحكات في الظلام..

وعندما اكتمل جمعــهم.. اغلقوا الباب ولم يمض وقت طويل حتى سمع صوت الموسيقى مختلطا بصوت الراقصات والأغاني.

كانت الخطة تقضي باصطيادهم وقت انصرافهم في نهاية الليل، وهم سكارى.. حتى يمكن القضــاء عليهم جميعــا أو اصطياد أكثرهم على الأقل.. ومــضى الليل بطيئا تطاردهم الرياح العــاتية في الخارج، كــما روى لي حــمد الروضان، وســكنت أصوات الحفل لمدة طويــلة في نهاية الليل.. وأخــذوا يشاهدونهم، وهم يجمــعون أغــراضهم، ونظر واحد منهم وقد فتح الباب وهو يصــيح بأن الفجر قريب ثم أغلق الباب وهو يغني ويتمايل..

انتقل الثلاثة بأسلحتهم، وقسموا أنفسهم على هيئة مثلث.. في الحديقة.. رأسه عند مدخلها وآخــر في عمقها يمينــا وآخر شمالا.. وتركوهم حــتى توسطوا الحديقة.. وما كادوا حــتى انطلقت أسلحة الثلاثة تحصدهم.. وبعــد أن انتهوا من مهمتــهم التقوا يشدون على أيدي بعضهم البعض.. وقبل أن يرتفع صــوت حمد محذرا إذ تحرك جسم أحدهم، وكان يتظاهر بالموت فأطلق الرصاص من مــدفعه على ثلاثتهم من ظهورهم.. فسقطوا شهداء على أرض المعركة.

ثم ينهي فالح قصته عن الأبطال الأربعة قائلا:

- ولقد قــال لي حمــد الروضان الذي شــاهد المعركــة.. لقد قابلــوا هذا العدد الكبير بشجــاعة نادرة.. وإنني لو رزقني الله أبناء بعددهم لسميتــهم المشاري والشملان والجمعــة.. لقد قضوا على هذا العــدد الكبير وكان أولهم هذا الخائــن الذي أحسن إليه الكويت، ولكنه أبى إلا أن يخون اليد التي أطعمته، وقدمت إليه المعروف..

***

كانت عودة فيصل الثنيان بمثابة وقود أشعل نار المقاومة، فازدادت لهيبا، وانضم إليها أعداد كبيرة من الشباب المتحمس والرجال بل والكهول والفتيات، والنساء، واستطاعت لبنى أن تكون مجموعة فدائية من الفتيات والنساء، وكان حماسهن للقاء المحتل وقتاله لايقل عن حماس الرجال.. وكانت لبنى موضع فخر بنات جنسها، فقد استطاعت بجرأتها وشجاعتها أن تضرب المحتل ضربات موجعة.. على انفراد متى سنحت الفرصة، وفي مجموعات إذا كانت العملية تستدعي وفرة العدد.. فقد كانت هوايتها اصطياد الأفراد الذين يسيرون بمفردهم بعد أن أتقنت الرماية على يد فالح الشويخ، وكانت تختار العمارات الضخمة المتعددة الطوابق لتصطاد العابرين وحدهم.. وأوقعت بعدد كبير منهم وساندتها جماعة من الفتيات، كن يسرعن إلى حمل الجثث من الطريق، ووضعها في الأدوار السفلى من هذه العمارات حتى يمكن التخلص منها، ولكن سرعان ما اكتشف العدو غياب بعض أفراده، وجدوا في البحث، وتعرضت المساكن للتفتيش عن هذه الجماعة التي تتعقب أفرادهم وتقضي عليهم أو تأسرهم.. وتذهب بهم إلى أماكن مجهولة أو تلقي بهم في الخليج..

وذات مساء.. كان القمر بدرا.. واختارت لبنى عمارة في الطريق الدائري الرابع كانت مؤجرة كمساكن لأساتذة الجامعة، ولكنها أصبحت مهجورة بعد الاحتلال.. وضعت سيارتها "لاندروفر" أمام المبنى لنقل الصيد.. وجلست خمس فتيات من مجموعتها على عتبات السلم الداخلي يلبسن جميعا زيا موحدا -أوفرول- رصاصية وفي حزام كل منهن مسدس وخنجر في انتظار الإشارة المتفق عليها، والإشارة المتداولة بينهن هي طلقة رصاص من مدفع صغير تحمله لبنى في كتفها.. وهي إشارة واضحة بأن الصيد قد وقع في الفخ، فينطلقن بأقصى سرعة ممكنة لسحبه للداخل، حتى تحين الفرصة لنقله إلى السيارة التي تسير عبر دروب ومسالك غير مطروقة حتى تصل إلى الصحراء، وفي ساحتها ترمى هذه الجثث داخل أنفاق اتفقن مع بعض سكان الصحراء على حفرها، وإهالة التراب على الجثث قبل بزوغ الصباح.

كان القمر بدرا، وأخذ جنديان مخموران يرفعان عقيرتهما بالغناء وبدا سكرهما واضحا.. وارتفعت ضحكاتهما حتى ملأت الطريق الخالي، وأخذ أحدهما يروي طرفة ماجنة بصوت عال، وكاد أن ينتهي منها لولا أن أسكتته رصاصة لبنى فدفنت وقاحته داخل حلقه.. فخر مضرجا بدمائه، فأخذ الآخر يجري صارخا ملتاثا.. لقد قتلوه الشياطين الملاعين.. أدركونا.. الحقونا.

ولكن لبنى عالجته برصاصة ثانية، فخر صريعا على بُعْدٍ من الآخر.

سمع ثلاثة من جنود الاحتلال الرصاص والاستغاثة، فسرعان ما انتشروا في المكان، ورأوا أحد الجنديين، وكان في النزع الأخير فأخذ يشير بيده نحو السطح.. فهم الجنود معنى إشارته فانطلقوا نحو باب العمارة.. كسروا الباب المغلق برصاصهم، واندفعوا داخل المبنى.. وشاهدت الفتيات الموقف من زاوية بعيدة فتحصنّ خلف ساتر من الخشب وضع "كديكور".. وأيديهن على زناد مسدساتهن..

تلفت الجنود يمنة ويسرة فلم يجدوا أحدا، فاندفعوا نحو الدرج، وأخذوا يصعدونه في سرعة، أدركت الفتيات أن نهاية لبنى قد دنت.. فمهما كانت شجاعتها أو جرأتها فلن تستطيع أن تتغلب على ثلاثة جنود مدربين على القتال، وهذه المواقف..

كان الوقت قصيرا لاتخاذ قرار، وكان القرار جاهزا فانطلقت رصاصتان في أعقاب الجنود وهم يتقافزون على الدرج.. فأصيبوا بالارتباك، وأدركت لبنى ما حدث تماما، فوقفت أعلى السلم، ويدها على مدفعها وكانت معركة محسومة.. فقد حوصر الجنود على الدرج بين رصاص الفتيات الخمسة من أسفل، ومدفع لبنى من أعلى، وهم حائرون مضطربون ماذا يفعلون..

وفي هذه اللحظات الفاصلة، فإن الفوز لمن يسبق ولو بثانية واحدة، وقد سبقنهم بدقائق..، وكانت موقعة من مواقع لبنى أشاد بها فيصل الثنيان قائد المقاومة بين فضائلها الكثيرة.

***

ليس في قـدرة المعتـدي أن يسيطر تماما على جمـيع وسائل الإعـلام في الوطن المحتل في هذا الزمان، فإذا استطاع أن يسيطر على التلفزيون، بمصادرة أجهزة الاستقبال البعـيدة المدى، فـإنه لم يستطع أن يصـادر أجهزة الراديو التي لا تحـصى . . فقـد أخذ الكويتيون والعـرب المقيمين على أرض الكويت يتابعون أخـبار التجمع العالمي المحـتشد على الحدود مطالبة حاكم العراق بالانسحاب طواعية قبل أن يخرج مطرودا ذليلا، وهذه الأخبار أزكت الأمل في نفوس الكويتـيين، وأشعلت فيهم جذوة حماس طاغـية لمقاومة هذه الغاصب الذي أحال حياتهم إلى جحيم، وشوه جمال بلادهم بجموعه الشعبية التي دفع بها إلى هذه الربوع التي نسـقتها وأبدعتـها أيد ماهرة، وخططت لها عقـول واعية، فعاثت فيـها كقطعان ماشية انطلقت في غـفلة داخل حديقة أبدعتها يد بستـاني خبير . . بالإضافة إلى ما نهبوه وسرقوه حتى إطارات السيارات، و أثاث المنازل، والثياب . .

كان حـقد الكويتـيين على الغاصب يزداد كل يوم، وأخـذت المقاومـة تزداد عنفا وضراوة، وهم يرون المحتل قد بدأ يرتبك من الضربات التي توجهها إليه المقاومة، ومن أنباء الحشود التي كانت تحتشد على الحدود . .

وفوجئ الكويتيون بخبر أذاعه التلفزيون، وبثتـه الإذاعة بأن قائد المقاومة الشعبية في الكويت، قد لقي مصـرعه في مياه شط العرب وهو يحاول الهـرب من حراسه في طريقهم إلى بغداد، وجاءوا بصورة لقتيل مشوه المعالم في مياه شط العرب . .

حزن الشعب لهذه الأنباء، وأقام الكثـيرون منهم مأتما للبطل الذي مضى والبلاد في حاجة إليه . .

أما فيـصل الثنيان فلم يحفل بالأمـر، فقد كان يتـوقعه كما دبره شـاكر، وتلقت المقاومـة السرية الخبـر بسخرية، وازدادوا إمـعانا في التحـدي وأرسل فيصل رجـاء بعد مغامـرة لبنى ومجموعـتها في الطريق الدائري الرابع يرجو جـميع أفراد المقاومـة حرصا

على حياتهم التي تعتبر ذخيرة للوطن، أن يختبئوا أياما بعد مغامرة لبنى الجريئة التي أودت بحياة خمسة من جنود المحتل الذي تعهد بأنه سيقبض على الجناة في هذا الحادث، والمضحك المحزن أنه وصفه بأنه عدوان على الشرعية، وسمى الفدائيين بالجناة والخارجين على القانون..

وطلب فيصل من جميع فصائل المقاومة، أن تفكر في أساليب جديدة تبتعد عن المواجهة، وأن تفكر في وسائل علمية، وأسلحة خفية لقتال العدو واغتياله بأسلوب بعيد عن القنبلة والرصاص..

ولم يتركهم نهبا للتخمين والقلق بل تقدمهم على طريق جديد وبفكر لم يعهدوه من قبل، ورجاهم أن ينتظروا حتى ينتهي من خطته الجديدة، التي تعتمد على المكر والدهاء أكثر مما تعتمد على المواجهة.

كان المحتل قد وضع يده على مخابز الدولة.. وسخر بعضا منها خصصه لإطعام جيش الاحتلال؛ وقع اختيار فيصل على واحد منها بعد حسابات دقيقة، من يعمل به؟ ومن يشرف عليه من أفراد المحتل؟ ولمن يتبع من الرؤساء؟

كانت الخطة تقوم على تدمير أكبر عدد من أفراد العدو عن طريق المعدة، بأسلوب جديد. . ودرس جديد للمقاومة..

طلب من فالح الشويخ و محمود المنزلاوي أن يبحثا عن سم "السيانيد" وأن يشتريا أكبر كمية منه، استغرق جمعها أسبوعاً.. وفي سرية تامة.. وكلف فدائياً من شباب منطقة الشعب بالتعرف على مدير المخبز الكويتي في المنطقة.. واستجلاء النقاط التالية. كم عدد الذين يعملون في المخبز، وهل يعملون جميعاً في دوام واحد.. أم أنهم منقسمون إلى مجموعات ومن أسماء المجموعة الأخيرة في يوم الخميس في الأسبوع القادم والذي يليه ما أمكن . وهل يرأسهم أحد من جنود الاحتلال بصورة

دائمة أو يتغير، ومن رئيسه الذي يتصل به، وأين مكانه، ورقم تليفونه؟ وكرر عليه بضرورة التأكد من هذه البيانات، ولن يكون هذا إلا بالبحث عن شخص شجاع.. فدائي، ولاأظن أن هناك كويتي أو عربي مخلص لعروبته إلا ويتمنى أن يكون فدائياً، ويتعاون مع الكويتيين في طرد هذا المحتل البغيض.

واستمر جمع البيانات أسبوعاً. ضاقت المقاومة بتوقف الكفاح، ولكن فيصل طالبهم بالصبر، وأخبرهم أن ضربة واحدة شاملة، تصيب عددا كبيراً من أفراد العدو أفضل من قتل فرد أو فردين يتعرض الفدائيون فيها للخطر وليس كقتل مجموعة كبيرة.. فكل منها تستدعي الملاحقة، والأفضل لنا أن نضرب ضربة كبيرة شاملة تصعقه على حين غرة وفي غفلة منه بعد أن نتركه يسترخي ويستريح، ويعتقد أن المقاومة قد هدأت أو يئست..

كان المقربون من فيصل يعرفون هدف خطته، ولكن طريقة تنفيذها كانت تدور حولها تكهنات، وتعودوا أن لا يسألوا عن شيء حتى يطلب منهم، وأيضاً أن لا يصرحوا بما يجول داخل نفوسهم، فالعمل السري يستدعي الحيطة في كل شئ حتى التحكم في النَّفَس كما كان يقول حامد الجوهري واستدعي فجأة فيصل الثنيان خلية مكونة من: الياسين وفالح الشويخ، والجوعان وخزعل والغنيم والعثمان ومحمود المنزلاوي، وحامد الجوهري، وعوني النفيسي، ومعاوية الحموي وقال بعد أن شرح عليهم خطتة:

- عندما ندخل إلى المخبز لتنفيذ خطتنا... هناك احتمالان.. إما أن نغتال مسئول جيش الاحتلال الموجود بالمخبز أولاً ثم نمضي في تنفيذ خطتنا، وإما أن نبعده عن المخبز بحيلة ما.. والحيلة جاهزة، فما رأيكم؟

ولكنهم انقسموا إلى الرأيين، وعرض كل فريق حجته... وكان من أنصار عدم

اغتيال مسئول الاحتلال فـالح الشويخ و محمود المنزلاوي، وعوني، و معاوية، وانضم إليهم فيصل حتى يظل مسرح العـملية هادئاً، لأن الخطة تنبني على أن تسير العملية في المخبز وخارجه بطريقة طبيعية حتى لايتسرب الشك إلى أحد. .

وقبل تنفيـذ العملية بساعات، جاء فالـح الشويخ لينبئه بأن مسئـول الاحتلال قد تغيـر. . وأنه يلزم وقت للتـعرف على اسـمه حـتى يتم كل شئ بالأسلوب الذي اتفق عليه. . فابتسم فيصل وقال:

- إنها فرصة ساقتها إلينا الأقدار بدلاً من أن تكون عقبة في طريقنا. .

ورأى علامة تعجب في وجه فالح فقال له:

- المثل يقول: لكل قـادم دهشة. . وهو تعبـير مهـذب عن الارتباك، وفي هذه الحالة يكون اسـتدعاؤه خارج المخبـز سهلاً، فهـو جديد على العمل وقدرته علـى تمييز أصوات رؤسائه في هذا المكان ستأخذ فترة حتى يتأقلم عليها. .

- إنني مشدوه من سرعة بديهتك يافيصل. . وأنا من رأيك منذ أن عرفته ولكن كان من المهم أن أخبرك. . فقد يكون لديك اعتبارات ليست عندي. .

- دع الأمور تجري في طريقها. . كما أنه لابد لكل عمل جانب فيه مخاطره. . وأي عمل في الوجود بعيد حتى عن عالم المقاومة السرية فيه جانب يُترك للمخاطرة.

فـالمخاطرة تكـمن في طريق الكائن الحي. . أرادها الإنسـان أو حـاول الابتعـاد عنها . فلنهون على أنفسنا ياأخي. . قدرما نستطيع. .

ودقت ساعة العمل في الثانية صباحا. . استُدْعِي مندوب جيش الاحتلال لرئاسته والتي كانـت خالية في هذا الوقـت، استدعـاه فالح الشـويخ للرئاسة لأمـر عاجل من تليفون منزله، وطلب منه أن يبقى في الرئاسة إذا لم يجد بها أحدا. . وألا يحاول شغل

التليفون بأي مكالمة مهما كانت قصيرة، وأوهمه بأن الخط متصل ببغداد، وعن طريقه ترسل مكالمات بغداد الهامة والعاجلة من رئاسة الأركان هناك، وبعد أن اطمأن على خلو المخبز من المندوب، أسرع وانضم إلى فيصل وزملائه، وأعطاهم الإشارة بأن الأمر على ما يرام، انطلقوا جميعا في ثياب جند الاحتلال برتب مختلفة، وطرقوا باب المخبز، وسرعان ما فتحت الأبواب في حملة تفتيشية. . استقبله مديرالمخبز مرحباً، وجمع لهم العاملين لتحيتهم بينما انطلق فالح الشويخ، ومحمود، وعوني، والغنيم والعثمان وخزعل والجوعان والياسين إلى مخزن الدقيق، وأخذوا يخلطون "السيانيد" بالدقيق. . الذي كان يكفي لصنع ثلاثة آلاف رغيف، وبعد الانتهاء من هذه العملية عادوا إلى حيث كان فيصل يتحدث إلى جميع العاملين في ضرورة أخذ الحيطة من المقاومة الشعبية حتى لا ينفذوا إلى هذه المرافق الحساسة، فلا يدري أحد إذا تسللوا إليها ماذا سيحدث وأن عليهم جميعا الالتزام بأوامر مندوب القيادة. .

وخرجوا جميعا بعد أن انصرف جميع العمال إلى أعمالهم. .

وكانت هناك أسئلة حائرة على لسان المدير الكويتي للمخبز ـ والذي كان على علم بالأمر ـ ولكن فيصل عاجله بقوله وهو في طريقه إلى سيارته:

- اسمع يا معود اهرب. . وأخبر هؤلاء العمال قبل مغادرتهم، وبطريقة سرية، دون أن يعرف واحد منهم ما قيل للآخرين. . أخبرهم واحدا واحدا أن يهرب كل واحد بجلده وبسرعة، وألا يعود إلى المخبز أبدا، وأن يعطى كل واحد منهم ألف دينار سلمها فيصل له، وأن يسلم كل واحد منهم إسم تاجر يبحث عنه ويذهب للعمل عنده، وسلمه كشفا بهم، ويقبّل المدير الكويتي فيصل في جبهته قائلا:

- بارك الله فيك يا معود. . لقد وفيت حق هؤلاء الناس وزيادة، لقد كنت أفكر في مصير هؤلاء الشباب. . كأنك الفدائي فيصل الشنيان -ولد الديرة- الذي يتحدث عنه

الناس وكأنه أسطورة، ولولا معرفتي بأن هؤلاء المجرمين قتلوه كما أعلنوا فرحين!! لقلت إنه أنت. . ولكن الله عوضنا خيرا بك وبأمثالك.

كانت تباشير الصباح قد بدأت تطرد فلول الظلام عندما قال فيصل:

- اسمعوا يا جماعة الخير: علينا أن نسرع لتنفيذ الجزء الثاني من الخطة وهي تعطيل سيارات الإسعاف بأي ثمن. . بتعطيلها في أماكنها، فإذا لم نستطع وانطلقت لإنقاذ هؤلاء المحتلين من براثن هذا السم الذي وضعناه لهم في الخبز. . لا بد من تعطيل هذه السيارات في الطريق بأي ثمن. . فالمخاطرة هنا مطلوبة، والفداء هنا له مقابل ملموس. . وحتى تصيب الخطة هدفها الكامل. .

واستطاعت المقاومة فعلا ببسالة نادرة أن تعطل أغلب سيارات الإنقاذ. . حتى استدعت سلطات المحتل كثيرا من سيارات الجيش، بعد أن تأخر الوقت كثيرا، وقضى الكثير نحبهم. .

وكان من الأمور المضحكة والتي تدعو إلى السخرية أن يرى المشاهد الجنود والضباط في الطريق وهم يهرولون، وقد وضعوا أيديهم على بطونهم، وفي حال سيئة يتقيئون ما في أمعائهم في الطريق، وبعضهم يطرق الأبواب بحثا عن دورة مياه. .

كانوا يلقون بأسلحتهم في أي مكان، وكانت المقاومة تتوقع هذا وتنتظره فأخذوا يجمعونه، وكانت فرصة لانتقام الأهالي، فقتلوا الكثير منهم ودفنوهم في الحدائق. . والأماكن الخالية في ظلمة الليل، وسجلت هذه العملية انتصارا ساحقا للمقاومة. .

***

حاولت سلطات الاحتلال التمويه، وتغطية ما حـدث بنشر أخبار ملفقة خوفا من تسرب حقيقتها إلى بغداد، ولكن وسائل الأعلام العالمية التي تلقت معلومات عن الخطة وكثـرة الضحـايا من رسالة سـربتها المقـاومة إلى الخـارج، وعن طريقها اتـضح حجم الكارثة، وأرسلت القيادة في بغداد استدعاء عاجلا لقائد الاحتلال فتلقى كثيرا من اللوم بل والتهديد بعقابه إذا تكرر ذلك مرة أخرى، بل إن القيادة عندما علمت بحجم الكارثة بدقة فقد راح ضحيتها مـا يزيد على مائتي جندي وضابط، استدعت القائد مرة أخرى، فسحبت منه رتبته، وسرحته من الجيش..

وقالت صحف المحتل: إن هذه الأحداث الخطيـرة، وهذه المذبحة تؤكد إن فيصل الثنيان لم يلق مصرعه كما ادعت القيادة، وأن هذا الفدائي لازال حيا، وأنه هو صاحب هذه المذبحة.. وأنه لا زال رابضا هناك على أرض الكويت..

وكان الكويتـيون يبحثـون في وجوه بعضهم البـعض عندما يتقابلون في المـتاجر والطريق والمساجـد علهم يعرفون في أحدهم مـلامح هذا البطل الذي انشقت عنه أرض الكويت، فأخذ يكـيل الضربات الموجعة لهذا المحـتل الذي تصور أن جرائمه سـتمضي دون عقـاب أو مساءلة، ولكنه بدأ يلقى جـزاءه.. وبدأ الشعب ينظر إلى أفـراد المحتل بسخرية واضحـة لقد أزاحت تلك الضربة الناجحة هذا الكابوس الذي كـان جاثما على صدورهم، وبددت الرهبة التي كانت تحول بينهم وبين جنـود الاحتلال، فشعر المواطنون بأنهم أضعف مما حـاولوا بها تصوير أنفـسهم في تصرفـاتهم، وفي أجهزة إعـلامهم.. وأخذوا يعاملونهم مـعاملة الند للند.. رغم ما يحملونه من سلاح، وما لقـنته قيادتهم لهم من صـلافة بالأضـافة إلى مـا شحنتـهم به أجـهزة الأعـلام في بلادهم بأنهم جند المنتصر، وأنهم أبطال القادسية التي لا مكان لها إلا في مخيلتهم حتى أن أحد الكويتيين احتك بأحد الجنود وقد وجده يمشي في جلافة فقال له ضاحكا وساخرا:

- كيف حال بطنك اليوم.. هل بقي بها أمعاء؟!

فرد الجندي بنفس الجلافة:

- خايس مثل أهلك وبلدك..

فثار الكويتي.. وصفعه قائلا:

- والله ما في أحد خايس سواك وبلدك.. أنتم الظاهرمن رعيل الجرذان ماينفع فيكم سوى ها السم.. الذي جعلكم تقبلون الأيدي لتهرعوا إلى دورات المياه.. أنسيت من أسبوعين وأنت تجري لدورة مياه المسجد، ولولاه لفعلتها في الطريق.. يا قذر.. أنتم أكوام قذارة.

فما كان من الجندي إلا أن أخرج مسدسه وأطلق عليه الرصاص، وإن كانت الرصاصة لم تصب منه مقتلا وتكررت حوادث مشابهة.. وأخذ الجو يتوتر بين المواطنين، وجنود الاحتلال، حتى صدرت لهم الأوامر بأن لا يحتكوا بالمواطنين، بعد أن صار موقفهم صعبا، وبعد أن وجهت الأمم المتحدة إنذارا للمحتل، وهددته بإخراجه عنوة إذا لم يخرج طواعية، فأراد أن يهدئ الجو ليتفرغ للخطر القادم من الحدود، ودفع بأعداد أخرى وفيرة من العاطلين، وضع في أيديهم الأسلحة، وطلب منهم أن يدخلوا إلى الكويت ليكونوا ظهرا لقواتهم المحاربة.. فعاثوا في البلاد سلبا ونهبا، فماذا تريد من جائع فقير وجد أمامه مائدة ملأى بالطعام، وكنوزا مباحة.. وكان أشد ما ثار له الكوتيون هو محاولة الاعتداء على الحرمات، ظنوا أن كل شيء مباح.. ونسوا حتى إسلامهم الذي ادعوه، وما كانت تذيعه أجهزة إعلامهم ليل نهار بأنهم جند الإسلام..

ثارت لبنى لما سمعت، وتوجهت إلى فيصل الشنيان، وطلبت منه أن يتركها تقوم بعملية فدائية من تدبيرها فقال لها فيصل ضاحكا:

- أرى يا أخت لبنى أنك تحاولين تعويض ما فاتك في عملية المخبر.

وتقاطعه قائلة:

- لقد كانت ضربة قاتلة، وعملية مدهشة، وكم كنت أتمنى أن يكون لي دور فيها.. ولكنها الظروف القاهرة.

- نسيت أن أسألك.. هل شفيت تماما؟ ومن استخرج الرصاصة من فخذك.. لقد كانت عمليتك في الطريق الدائري الرابع موفقة بكل المقاييس.. ولكن الرصاصة التي أصابتك أزعجتنا جميعا، ولقد قمت بعملية المخبز انتقاما منهم.. بعد أن أصابوك برصاصة غادرة..

كان فيصل يحاول تهدئتها حتى لا تندفع إلى عمل جريء يقضي عليها، فقد كانت عضوا له مكانته، وتمثل المرأة في مجال المقاومة السرية، ولا زال على وجهها شحوب المرض، فسأل إلهاءً لها:

- ومن الذي استخرج الرصاصة التي أصابت فخذك؟

- أنت تعرف بلا شك.. معقول أن تسألني عن هذا وأنت الذي أرسلته كما قال لي الدكتور مشاري البحر نفسه.. أنت يا فيصل تريد أن تلهيني عن طلبي، إسمع يا فيصل.. أنا جئت إليك من باب المجاملة فقط، وأنت زعيمنا بلا منازع.. ولكنك لاتستطيع أن تكفني عن أن أقوم بعملية فدائية دفاعا عن الوطن وعن أبناء جنسي الذي يعتدى عليهم بطريقة بربرية وهمجية وكأنهن إماء، وأسرى حرب، أو سبايا، لقد جاوزوا المدى، ولا بد من إيقافهم عند حدهم، وتخويفهم..

لقد استشهدت كثيرات من الفتيات والنساء دفاعا عن شرفهن، ومع الأسف من رجال يدعون أنهم مسلمون.. لقد أصبحت الأديان في عصرنا الحديث شماعة تعلق

عليها جرائـم أتباعها، إنهم يتصورون أننا سـبايا حرب، كما يتصور اليـهود أنهم شعب الله المختار، وكل جريمة يرتكبوها في حق الأديان الأخرى فهي حسنات يتقربون بها إلى الله، والمسيحيون يرون أنهم الدين الحق ومن حقـهم أن يسودوا، وأن يفعلوا بغيرهم ما شاءوا، والمسلمون يتـصورون نفس الشيء، وها نحن مع مسلمين وأشقاء ونلقى مـصير هابيل.. لقد جعل الانسان من الأديان مهزلة، ومطية لأغراضه في كل أرض بل وبين أبناء الدين الواحد على الأرض الواحدة.. أليس هذا مضحكا ومبكيا!!

***

عندمـا يتم احـتـلال الوطن، يصـبح كل شيء، وأي قـيـمـة مهـيـأة تلقـائيـا للاغتصـاب. . وبخاصة إذا كان حماة هذا الاغـتصاب شبابا أو رجالا نمت أجـسامهم، ولم تنضج عـقولهم بمـا يوازي هذا النمو، و بخـاصة فـي الأمم المتخلفـة حضـاريا. . وعندما يتحـول هؤلاء إلى محتلين، فإنهم طبيعـيا يتحولون إلى مجمـوعة من الهمج، وهذا ما حدث، وكانت صدمة الشعب شـديدة أن يروا ما أسسوه وأقاموه من منشآت و مؤسسات إقـتصادية وعمرانية وثقـافية، وما تطبع عليه الشعب من سلوكـيات حضارية ينهار أو يداس تحت أقدام همـجية دون وازع من رحمة أو ضمـير أو أخلاق. . و تعدى هذا الخط الأحمر، عندما رأى الشعب أن أيـديهم بدأت تمتد إلى الحرمات. . وكان أول من شعر بهـذه الخطورة رجال المقاومة وعلـى رأسهم فيصل، ورأى أن من واجبـه تدبير خطة تتصـدى لهذا الإتجاه الـذي لم يرع خلقا و لا دينا، و قد فـاجأته لبنى بخطتـها و حماسها، فأعطاها الضوء الأخضر.

كانـت خطتهـا تقوم على دعـامتين أولا تأمين الأشـخاص بمدهم بالسـلاح، ثم المسارعة بالنجدة عند طلبـها وبالسرعة الممكنة، وأن تبدأ بحي "الشامـية" حيث تسكنها أسرتها، وعندمـا تنتهي منه، تنتقل إلى حي كـيفان ثم الفيحـاء. . وخططت على مدى شهرين لتكون العاصمة، وهي التي يتركز فـيها الإحتلال، قد أمنت جانب هذا العدوان الهمجي. .

وكانت صـعوبة الخطة تتركـز في أمرين ؛ توافر السـلاح، وخاصة المسـدسات وتوفير الحماية والنجدة عند طلبها واسـتطاع فيصل عن طريق بدو الصحراء عبر دروبهم ومسالكهم فيها إلى خارج الحدود أن يوفروا له طلبه من السلاح والذخيرة والمال، فكانوا حلقه الصلة بينهم وبين الحكومة بالخارج فوفروا له ما طلب وأكثر مما طلب لكل مرة. .

أما توفير الحماية والنجدة، فقد وعد بها ولكنه قال

- إن الأمر ليس سهلا كما تتصورين، فإن جيش الإحتلال متواجد في كل منطقة. ومن الصعب وجود حراسة دائمة في كل شارع أو شارعين أو حتى ثلاثة... ستكون بلا شك هناك معاونة من رجال المقاومة، ولكن هذه المعاونة ستكون تبعا للظروف والإمكانات.. حتى لا نعطي المحتل فرصة لنقدم له أنفسنا ونمد له رقابنا..

ثم دفع إليها ماطلبته من سلاح، فقالت في ثقة :

- أعرف هذا يا أخي، ولكنك عودتنا المخاطرة، ووضعت في نفوسنا الفكرة القائلة بأن كل حركة أو حتى عدمها فيه نوع من المخاطرة، وأن الحياة نفسها تولد من بين أنياب الألم والخطر.. وجاء قدرنا مع هذه العصابة التي تحكم في بغداد فهل ننكفئ أو نموت أحرارا مستريحي الضمير ؟ فعليك أن تهيئ لنا هذه الحماية بقدر الإمكان.. حتى ولو جاءت بافتراض الصدفة.. المهم أن تعمل شيئا ننقذ به هؤلاء النسوة المسكينات اللائي يتعرضن لهذا العدوان الوحشي..

ثم قالت :

- وأنا أعتقد أننا لو استطعنا أن نقطع بعض هذه الأيدي التي تمتد لتمزق شرف نسائنا في منطقة الشامية لقضينا على هذه الظاهرة في المناطق الأخرى ولأعطيناهم درسا لاينسونه..

ومع تضحيات كثيرة قامت بها بهض الفتيات والأمهات تراجعت هذه الظاهرة بعد أن راح ضحيتها الكثير من رجال الإحتلال، وبعض الشهيدات اللاتي واجهن الموت في شجاعة وبسالة حتى اضطرت قيادة المحتل إلى التنبيه على أفرادها بالابتعاد عن البيوت حتى لا تتحول إلى مقابر لهم..

وكان هذا المنشور السري الذي علمت به المقاومة بوسائلها بمثابة شهادة نجاح لخطة لبنى.. ولكنها أرادت أن تتوج خطتها بعمل فيه شهامة ونبل فقد شاع أن جنود

الإحتلال. قد تحولوا إلى بيوت الممرضات الآسيويات التابع للمستشفيات. ووجدوا فيها ضالتهم. . وأصبحت هذه الأماكن بمثابة بيـوت دعارة. تخدش حياء المجتمع الكويتي ربيب التقاليد الأخلاقية، فكل سكان هذه البيوت فتيات في دار غربة لا يستطعن الدفاع عن أنفسـهن، ولو افترض أنهن في بلادهن يعشن مجتمعا مغـايرا لا ينظر الى جرائم العرض نظرة العربي لها. . إلا أنهن في هذا المجتمع العربي لابد لهن أن يسلكن سلوكه ويعشن مثالياته. . كما أن مايحدث اغـتصاب والإغتصاب لا تقره أخلاق شعب أو حتى القبائل الهائمة في الغابة في عصرنا الحاضر. . أو أي عصر سابق. .

رأت لبنى أن مـعركتـها مع جنود الإحـتلال بعـد تأديبهم وكـفهم عن حـرمات الكويت، يجب أن تمتد لتشـمل بيوت هؤلاء الفتيات. . وبرغم أن فيـصل نبهها إلى أن هذه المعركـة مع جنود الإحتلال تخـتلف عما سبـقها، فـما سبق كانت حـالات فردية متباعدة، بالإضـافة إلى تفاني المرأة أو الفتاة الكويتية في الدفاع عن شـرفها صرفهم عن هذا الإتجاه غير آسفين، بعد أن ظهر أنهم يلـعبون بنار تحرق أصابعهم، إلا أن حالة هذه البـيوت تخـتلف تماما، فكثـيرات منهن يـرحبن بزوارهن، بل ربما يعتـبرن هذا تقـديرا لأنوثتهن وسحرهن. . وأن الأمر يبدو لديهن طبيعيـا ومشروعا. كما أن جيش الإحتلال لديه الشجـاعة والجرأة أن يدافع عن نزواته ولو بطريقـة خفية. . فكل الجنود والضـباط يذهبون هناك وأصبحوا يعتبرونه مكانا لراحتهم ورفاهيتهم، لايؤذي أحدا. . وأنه لا حق لأحد في الدفاع عنه.

ولكن لبنى أصرت على إغلاق هذا الباب في وجوههم أيضا. . وقالت :

- إنهن في أرضنا، ويدركن أنه اغـتصاب، وأن العلاقـات الطبيعـية لايمكن أن تتحول إلى هذا المستوى الدنيء. . ثم إن الشـعب ينظر الى هذه البيوت ويرى مايحدث فيها. .

ويقاطعها فيصل :

- إننا لا نريد أن نضطر إلى معـركة ظاهرة مع المحتل.. فتلك ستكون مـعركة خاسرة لنا.. بل ربما تعطـل كفاحنا.. إنني متأكـد أن الكفاح سيستـمر طالما كان هناك محتل بقينا أو ذهبنا، ولكنه سيتوقف فترة إذا تمكنوا منا.. أنا معك فيما ستقدمين عليه، ولكن بتـوخي الحذر التـام ؛ فنحن مـقدمـون على عمـل خطير.. وقـد يتحـول إلى مجابهة..

- إنها المخاطرة دائما التي تدفعنا لأن نفعلها.

ومضت لبنى في طريقها، وكانت خطتهـا تنبني على تجنيد هؤلاء الفتيات للعمل لحـسـاب المقاومـة، ولن يكون هـذا إلا عن طريق المال والهـدايا الثـمـينة وطلبت من صديقاتها وأقاربها ونساء الحي موافاتها بحليهن وأثمن ماعندهن من جواهر ولآلئ، لأن المقاومة في حاجة إليها، وبعد بضعة أيام كان لديها كنز ثمين..

ذهبت في زيارة خفية إلى بيت الممرضـات الفلبينيات وطلبت من مديرة البيت أن تزورها بعد أن أشـعرتها بمودة نحوها، وحـددت لها موعدا في اليـوم التالي، وفي هذا اللقاء تطرق الحـديث بطبيعتـه إلى مايحدث داخل البـيت من أحداث مخجلة، فـقالت "سوزي" دفاعا عما يحدث :

- ماذا تفـعل الفتـيات، والحب يفـرض عليهن، إمـا الحب أو الإيذاء أو الموت أحيانا.. فتـيات صغيرات أو نساء عـاجزات عن الدفاع عن أنفسهن أمـام وحوش آدمية وبأيديهم الموت بما يحـملون من سلاح. فـماذا يفعلـن غير الإستـسـلام، كارهات أو راضيـات.. ليس مهمـا.. ولكن كل مايريدونه اشـباع رغبـتهم، ولو تحـول الأمر الى عملية بهيمية تماما :

- وأنت.. ألم يتعرض لك أحد.. ويطلب منك قضاء الحاجة معه..

- نادرا.. فما حاجتهم لي، وهناك فتيات صغيرات أجمل، وأنضر شبابا..

وأصبح البيت ملتقى لطالبي الرغبة من الضباط بعد أن أزاحوا الجنود من طريقهم.. فالغلبة دائما للقوي..

وكانت هذه الشعرة التي تبحث عنها لبنى لتدخل منها بسهولة إلى موضوعها، فالمرأة شبه كارهة فيما يبدو لما يحدث في البيت، فقالت لبنى:

- لا جدال في أنك تكرهين مايحدث في البيت من مهازل..

- تماما.. وبعد أن انفلت النظام.. فكيف تتصرفين مع فتاة تدعي أنها عشيقة قائد المدفعية وتلك خليلة مدير الإستخبارات.. وحامل في ابنه.

- وما رأيك فيمن يساعدك في إعادة نظام البيت كما كان قبل الإحتلال..

وتضحك سوزي وتقول ساخرة:

- لابد إذن أن يكون هذا الشخص نابليون أو هتلر أو بوش رئيس الولايات المتحدة ولديه جيش وافر العدد والعدة.. أم أنك تتحدثين عن الجيوش التي تقف على الحدود، حتى هذه الجيوش فإن ديكتاتور العراق يتحداها، ويعلن أنها لو دخلت في حرب معه، فإن مصيرها أن تدفن في الصحراء..

- إن أغلب الكلاب التي تعوي لا تعض، إنهم أول من يعرف أنهم لو دخلوا القتال فسيدخلون معركة خاسرة، فالأمر لا يعدو الدعاية، وهم أول من يعرف كذبهم.. إن أيامهم في الكويت باتت معدودة

كانت لبني تقصد من هذا أن تدفعها للمعاونة مادامت أيام الإحتلال باتت معدودة.. بالإضافة إلى أن مايحدث في البيت يضايقها، ويشل من حركتها بل وصرحت للبنى بأن بعضهن تجرأن على إدارتها، وهددنها بانتزاع الإدارة من يدها بما لهن

من صلات برجال الإحتلال، وأنها تمثل الإدارة الكـويتية التي لم يعد لها وجود.. وأن الإدارة الجديدة للمستشفيات ستتخذ قرارات أخرى..

كان الطريق ممهدا أمامها فقالت لبنى :

- ما رأيك فى التعاون بيننا من الآن، وحتى يتم تحرير الكويت..

- تحرير الكويت!! هل ما تقولينه حقيقـة؟! إنها تسعدني، لقد كنا نعيش آمنين، سعداء، نأخذ حقنا، معاشنا مضمون.. أما الآن فحالنا يمضي من سيء إلى أسوأ، ولا ندري كيف نقبض معـاشاتنا، وقد أصبحت غير منتظمة، وناقـصة، وقيل إن الحكومة ـ التي اختـرعتها ـ سـتنظر في هذه المعاشات، وأنـها سيتم تخـفيضـها.. الله يرحم أيام زمان.. ليت أيام الكويت تعود..

- ستعود وسيطرد المحتلون شـر طردة، بل سيخرجون من بلادنا على وجوههم وسيدفن الـكثيرمنهم تحت هذه الرمال قـريبا.. فالحق والقوى المؤثرة في العـالم العربي معنا، والرأي العام العـالمي متعاطف معنا، وجيـوش القوى العظمى تقف على الحدود، وربما يكون تحرير الكويت قريبا أكثـر مما نظن ولاندري.. وأنا أدعوك يا سوزي أن تقفي معنا، وفـاءللكويت الذي تحبينـه، وتريدين عودة حكومتـه ورجاله.. التي ستـعود في القريب بإذن الله

- روحي فداء للكويت يا أخت لبنى.. ولكن كيف؟!

وشرحت لها لبنى طريقة العمل، وارتاعت سوزي عندما أدركت أنها ستعمل مع المقاومة السـرية، وأن الهدف هو اغتيال أفراد المحـتل باصطيادهم في المنزل الذي أصبح بؤرة سرطانيـة داخل جسم المجتمـع الكويتي، وحتى تشجـعها على التعـاون والسرية، عرضت عليها عقدا ثمينا من الماس عندما رأته قالت:

يا إلهي ابه عقد شبه عقد الملكه إليزابث ملكة إنجلترا إنه لا يقدر بثمن

فقالت لبنى مازحة

- ولكنه سيكون عقد الأميرة سوزي إذا تعاونت معنا.

فأجابت سوزي مأخوذة:

- لي أنا. .لي أنا، أنا على استعداد أن أتعاون دون مقابل. . ولكن كيف؟

ووضعت لبنى العقد في علبته أمامها وقالت لها:

- كيف حال الفتيات بالمنزل؟ أأنت على وفاق معهن؟ أم أن هناك مشكلات بينكن؟

- بعد الذي حدث، واستباحة جنود الاحتلال للمنزل، كان هناك بعض الخلاف، وظهرت بعض الفتيات بمظهر سيئ، فأصبحن لا يأتمرن بأمري، ويخرجن عندما يردن، ويأتين أي وقت في الصباح أو المساء وضربوا بلوائح المنزل عرض الحائط. .

- كم واحدة منهن؟

- ثلثهن تقريبا

- ألا يمكن وضعهن في مكان خاص. ووضع الأخريات المستجيبات لك في مكان آخر

صمتت سوزي قليلا وكأنها تفكر، كانت لا زالت مأخوذة مما عرضته لبنى عليها وبدت مرتبكة ويدها تهتز ولا تستطيع الأمساك بكوب العصير الذي قدمته لها لبنى فقالت لها.

- فكري بهدوء يا أخت سوزي، وثقي أنك ستكونين واحدة منا وإذا أحسست بالخطر، فلن ندعك وحدك، فسنبعدك عنه حتى لو اضطررنا لإخراجك من الكويت وإرجاعك إلى بلادك دون أن تمس شعرة واحدة من رأسك وستعودين معززة مكرمة بعد التحرير وثقي أننا ندرك أن سلامتك من سلامتنا، وأننا نخطط لهذه العمليات بدقة، وكل ما تسمعين عنه من مقاومة وتنكيل وقتل لأفراد المحتل.. كله من تدبيرنا.

- إذن أنتم من أتباع فيصل الثنيان.. هذا الأسطورة!!

- نعم.. نعم.. "جرجور" الكويت كما يطلق عليه الشعب.

ذهب الخوف عن سوزي.. وبدت تثق في لبنى، وشرحت لها لبنى طريقة العمل.. أن تخلي الدور الأرضي من الفتيات.. إلا من واحدة تثق فيها أو اثنتين، ويتصرفان عاديا، ويستقبلان أفراد المحتل، ويقدمان لهم الشراب الذي يحضرانه كما هي عادتهم، بالإضافة إلى كيس صغير من البودرة..

- والفتيات!!

وقبل أن تتم كلامها قالت لبنى ضاحكة:

- لهن نصيب عن كل عملية.. عقد أو قرط تبعا لأهمية الزائر، أو حتى تكتفي.. إن لدينا كنز سنهبه لمن يعاوننا على هؤلاء المجرمين.

- والجثث..

- لا تحملي هما لهذا فقد دبرنا أمرنا جيدا، وخلفاء فيصل الأسطورة لن يكونوا أقل ذكاء منه.. لقد علمهم ودربهم.

وكان فيصل بنفسه هو الذي يشرف على نقل الجثث، وقد ارتدى ثياب ضابط من ضباط المحتل، وسيارة من سياراته كانت مخبأة لمثل هذه الحالات.. كما أنه كان يعتبر

لبنى رمزا لبطولة المرأة الكويتية فقد حولت حزنها وفـجيعتها إلى طاقة مدمرة. . بعد أن اغتال الطغاة طفلها وهو جنين في أحشائهـا ولكنه كان يخاف جرأتها التي كانت تتعدى الحدود. . ورغم انشغاله بعمليات شملت اغـتيال نصف أفراد الحكومة التي ادعى المحتل أنهم من الكويت، وعمليـة نسف لمعدات العدو. . إلا أنه استـخلص مساحة مـن وقته المشحون ليعاون يوميا في إنجاح خطة لبنى. . الذي كان يطلق عليها "الأفعى الجميلة".

وسارت خطة لبنى على النحـو المرسوم لها، وكانت حصـيلتها لأسبـوعها الأول ضابطان ومجند أودعهما فيصل بيده قلب الصحراء بين الطريقين الدائري الرابع والخامس وكانت "الحظرة" التي أقامتـها لبنى ليوم واحد في الأسبوع، تخـتاره هي ومديرة البيت عندما تجد الـوقت ملائما والصيد حـاضرا، والجو هادئا، وكانت تتم العـملية في الدور الأرضي لسهولة الحركة، وقد أضحك فيصل وأسعده اختيار كلمة "الحظرة" فقال :

- كان جدي -رحـمه الله- "ثنيان الماجـد" ينصب لنا المصيدة أو الحظرة في مياه الخليج، وكنا ننام بجوارها على الشـاطئ نحلم فرحين بما ستخـرجه الينا من ثماره. . . مجـموعة شـهية لذيذة من أسـماكه تبـدأ من الميد وتنتهي بـالسبيطي، مـرورا بالنجرور والهامـور والبيـاح والسلطان إبراهيم، فجـاء هذا المحتل البـغيض، فـأحال حـياة هذه الكائنات إلى جحـيم بما أسال فيه من نفط وزيت مـحترق حتى طيـور البرّلم تسلم من شروره لطخها عاره الذي مـلأبه البر كما ملأ به البحر. . وحول ثروة أمـته التي يدعيها زورا إلى نقمة.

ثم يواصل :

- فجئت أنت فنقلت الحظرة إلى الداخل بعيدا عن البحر الذي أهلكه، لاصطياد جنده المغرورين بطبله الأجوف . مرحى أيتها "الأفـعى الجميلة" لقد انتقمت لتاريخك وبلادك الخيرة المعطاء. . واصطدت منهم الكثير. .

وطلب منها أن تكتفي بهذا ولكنها أصرت على بقاء "الحظرة" قائلة :

- إن شهرا واحدا لا يطفئ ظمئي بعد أن تجاوز حكام بغداد كل الحدود وانتهكوا كل الحرمات.. حتى ولو ذهبت ضحية هذه "الحظرة" مادامت تدر عائدا أسبوعيا لا يقل عن ثلاثة من هؤلاء المغرورين الذين ينتهكون تراب الكويت الطاهر..

* * *

ضجت رئاسة الإستخبارات العامة في بغداد لفقد هذا العدد الكبير من القوات وبعثت رسالة شديدة اللهجة لفرعها العامل مع قوات الاحتلال في الكويت بالبحث عن الأفراد المفقودين، ومعرفة مصيرهم.. وهل اغتالتهم المقاومة السرية كما اغتالت بعض أفراد الحكومة التي عينها الزعيم، وأعطتهم فرصة عشرة أيام وإلا فستقوم بمحاكمتهم وتسريحهم من الخدمة، وحرمانهم من معاشاتهم الخيالية التي تميزهم عن بقية الجيش، وهددتهم بإبلاغ الأمر إلى الزعيم الذي لو علم بالأمر فلن يقبل سوى رميهم بالرصاص في ساحة عامة..

ووصلت الأخبار إلى نائب الزعيم من عيونه الخاصة، واستدعى رئيس الاستخبارت وخضع كما هو الحال دائماً إلى تفتيش، وكانت طريقة التفتيش صارمة، فقد جردوه من ملابسه، وأعطوها له قطعة قطعة، حتى الملابس الداخلية زيادة في الحرص على حياة نائب الزعيم.. وأدخلوه بعدها عليه آخر الأمر والذي ظل ينظر في أوراق أمامه لمدة ساعة، وهو لايعيره التفاتاً، وكأنه غير موجود على الإطلاق.

وكان نائب الزعيم يتباهى بأن من يقابله لابد أن يفعلها على نفسه قبل أن يتحدث معه، وظل يعبث بمسدسين يزنهما في يده، ويطمئن على ذخيرتهما بإخراجها منها، وإعادتها إليهما مرة ثانية، ولسان الحال يؤكد بأنه سيلقى حتفه بواحد منهما.. وأخيراً حدد نظره إليه في وحشية وقال:

- من أنت أيها الحيوان؟

- أنا.. أنا.. سيدي..

- قلت من أنت أيها الجرذ.. تكلم.. هل قطعوا لسانك في الكويت أيضا أيها الكلب القذر.. قلتم أن هذا المدعو فيصل الذي أذاقكم الخزي، وأضحك عليكم الصبية، قد انتهى أمره، وأكلته أسماك شط العرب، فما عذركم الآن.. إن عاماً واحداً

يكفي لأن نصبح بلا جيش بعد هذه الأنباء التي وصلتني عن مقتل هذه الأعداد من حرس الزعيم، ورجاله المخلصين وأنتم هنا تتربعون على قدور النبيذ، وصدور النساء..

- سيدي نحن جادون في البحث عنهم.. فربما هربوا إلى الصحراء.. أنتم تعرفون سيدي بأن كثيراً منهم لايؤمنون بهذه الحرب، ويقولون لماذا نحارب أشقاءنا وإخواننا!!

- أنت تناقشني في سياسة الزعيم؟ لم يجرؤ عليها أحد من قبلك أيها الخنزير اللئيم.. لقد حكمت على نفسك..

- لا أقصد سيدي.. وحاشاك أن يعترض أحد على سياستكما، فأنت نائب الزعيم الملهم.. وكل ما أرجو -سيدي- أن تدعني أقبل يديك وأقدامك وأن أستغفرك، فيما تظنه قد ظهر مني لك.. وأن تعطيني -سيدي- فرصة أسبوع، أسبوع واحد، وأنا آتيك بكل ماتطلبه عن مصير هؤلاء..

- تريد أن تأخذ فرصاً أخرى.. لقد أعطيناك فرصة كبرى تستريح فيها من العمل والحياة أيضاً...

وأطلق عليه الرصاص.. فخر يتخبط في دمه

أخذ نائب الزعيم يقهقه.. ثم دق الجرس، فدخل الحارس ومعه رئيس الاستخبارات الجديد.. وعندما وقف أمامه قال له:

- انظر على رأس من تقف.. على رأس رئيسك السابق، وسيكون هناك من يقف على رأسك من الغد إذا أنت أهملت أو تقاعست عن أداء واجبك.. الأخبار تأتيني فوراً، واحمل معك جثة هذا الكلب وتصرف فيها..

وانصرف رئيس الاستخبارات الجديد بجثة رئيسه السابق، ولكن قبل أن يواريه الباب ناداه ثانية وقال له وهو يعطيه ظهره:

- اسمع أيها الخنزير . ألست تلميذه!!

ويتابع نائب الزعيم:

- لقد فتحنا لكم هذه البلاد، وضممناها إلى دولتنا، وأطلقنا أيديكم على مافيها من كنوز.. ونهبتم ماشئتم، ولم يحاسبكم أحد.. ولكن أن تصبحوا لعبة في أيدي خليفة هذا الفيصل الذي سخر من جيشنا!!.. والآن مضى فيصل هذا.. فأين ذهب هؤلاء.. أريد أخبارهم بأقصى سرعة.. فإذا كنا لانستطيع أن نتعامل مع مجموعة من الصبية في الكويت.. فكيف سنقف في وجه تلك الجيوش التي تقف لنا علي الحدود.. وقد وعد الزعيم بأن يدفنهم حيث هم، وسأدفنك معهم إذا لم تأتني بأخبار الجند المفقودين..

- حاضر سيدي.. حاضر سيدي.. سأنفذ طلبك على الفور..

وسافر الرئيس الجديد إلى الكويت رأساً، وأخذ معه مئات من موظفي الإدارة وأمر أن يظل الأمر سراً، وفوجئ مدير الاستخبارات هناك بحضور هذا العدد الضخم من الرجال ، وخضع لاستجوابات الرئيس الجديد، ونال من الإهانات حقه، بعد أن شرح الظروف التي اختفى فيها العدد الكبير من الضباط والجنود، واغتيال بعض أعضاء الحكومة..

طلب من قائد جيش الاحتلال أن يعطيه مائة ضابط من خيرة ضباطه، ومائتي جندي، جردهم من ثيابهم العسكرية، وألبسهم ملابس مدنية، ووزعهم بجانب قوات الاستخبارات على جميع شوارع مدينة الكويت وأحيائها، وأمرهم بمراقبة جميع الأماكن التي يذهب إليها الضباط والجنود وإحصاؤهم عند دخولهم، وعند خروجهم، وتبليغه بهذه الإحصاءات يومياً إذا حدث نقص في هذه الأعداد، وأعطاهم تصريحاً بدخول أي مكان وتفتيشه دون اعتراض من أي رتبه، وأبلغ قادة الجيش بأن هذه أوامر نائب

الزعيم. ولانقاش فيها لصالح الأمن العام، وجيش الزعيم وحرسه.. واستمرت المراقبة لأكثر من أسبوع.. حتى جاءت الأخبار بأن هناك منزل يذهب إليه الضباط، ويمكثون فيه الليل بطوله، وأحياناً لايخرجون.. وتصدر منه موسيقى صاخبة، وتسمع منه ضحكات نسائية.. وأن هذا المنزل خاص بالنساء الأجنبيات ممن يعملن ممرضات في المستشفيات..

شددت الاستخبارات الرقابة على المنزل من أماكن بعيدة، وشم فيصل رائحة غير طبيعية في الجو.. فطلب من لبنى أن تتوقف ريثما تتضح الأمور لأن عيونه ترى حركة غير عادية، ولم يستطع إقناعها إلا بعد جهد..

ومر أسبوعان.. وعلى غير توقع اتصلت مديرة المنزل بلبنى وقالت:

- لماذا تغيبت طوال هذه المدة.. إن الفتيات يسألن عنك..

وطلبت من لبنى أن تزورها في أقرب فرصة، وأن كل شئ هادئ ولامانع من استئناف العمل معها.

عرضت الأمر على فيصل فسألها:

- لقد كانت غير راغبة في استمرار العملية قبل آن تتوقفي.. فما الذي يدعوها الآن إلى أن تلح عليك في استئناف العمل.. أرجوك يالبنى.. لاتذهبي إليها.. فأنا أخشى عليك..

ويتابع حديثه:

- إننا يجب أن نكون في منتهى الحرص.. فأعصاب المحتل بدأت تفلت من تشديد الحصار عليهم من الخارج.. والمهلة التي أعطتها الأمم المتحدة لهم بدأت تتسرب وقد تكون قوات التحرير في طريقها إلى هنا في خلال أيام أو ساعات..

ويواصل فيصل

- إن قوات العدو المحتل الآن في ورطة، وتتمنى أن تمسك بشيء أو تصل إلى أمر يحدث فرقعة إعلامية. لإلهاء جنودهم الذين بدأ الخوف يتسلل إلى قلوبهم. فقد مضت هذه المدة الطويلة على بدء غزوهم، ولم يستقر لهم الأمر بعد داخل الكويت؛ فالشعب يناضل ولم يتوقف لحظة، ولم يعطهم فرصة للاسترخاء أو حتى التثاؤب، والعالم يمور من الخارج صارخاً بضرورة إخراج المحتل.. فلا تعطيه فرصة يرفع بها معنويات جنوده المنهارة..

- فيصل.. ياجرجور الكويت والخليج.. لم أعهد فيك التراجع والنكوص، أنا أعرف أنه ربما تكون هناك مكيدة، ولكنني أيضاً لو عثرت على فرصة ولو كان نجاحها لايحظى بأكثر من واحد في المائة لما ترددت، ولو كان ثمنها رقبتي..

- أرجوك يالبنى.. بل أنا آمرك بأن لا تذهبي.. لاتجري أرجلنا إلى شرك.. قد يكون منصوباً لنا خلف هذه المكالمة.

وتظاهرت لبنى بالاستجابة، والرضوخ لرغبة فيصل.. ولكنها كانت تخفي أمراً.. فقد ذهبت. وإن كانت قد غيرت موعد زيارتها من بعد منتصف الليل إلى الظهيرة..

وعندما التقت بالمرأة هالها مارأته على جهها من شحوب وكدمات ومابدا في عينيها من بؤس وحزن فقالت لبنى.

- ماذا حدث ياسوزي!

ولكن "سوزي" لم تجب، فقد كانت منهارة تماماً، ودخل رجلان فقال أحدهما بغلظة:

- ستعرفين ماحدث

* * *

وهرع حامد الجوهري إلى فيصل، وأخبره بأن لبنى خرجت ظهراً ولم تعد حتى الآن.. ولم يمض سوى وقت قصير في نفس اليوم حتى أذاع التليفزيون في نشرته الإخبارية بأن إدارة الاستخبارات تعلن بأنه قد تم القبض على امرأة تعتبر من أخطر العناصر الإرهابية، وبمعاونتها وتدبيرها تم اغتيال العديد من رجال الحرس الجمهوري الذين تعتز بهم الأمة.. لقد كانت هذه المرأة المجرمة بمثابة مخلب قط لعصابة كبيرة يرأسها بعض المجرمين الخارجين على القانون.. الذين ظنوا أنهم بعيدون عن عين الاستخبارات الساهرة على جيش القادسية، وحرس القائد الأعلى، والزعيم المنتصر..

ورغم أن لبنى لم تعترف مطلقاً بأن وراءها المقاومة السرية الشعبية إلا أن الاستخبارات أخفت أن هذه المرأة قد قامت وحدها باغتيال العشرات من جندهم.. كما ذكرت لهم لبنى في شجاعة أربكتهم.. فكيف يقولون الحقيقة؟! إنهم لو ذكروها لطارت رقابهم.. فكيف يسمح القادة والزعيم المظفر، أن تفعل امرأة بجنده ما فعلت.. وزاد من مشكلتهم أنهم لا بد أن يعلنوا أن هناك تنظيم سري خلفها.. ولكن أين هذا التنظيم؟

وكان الحل جاهزا، إذ قال لهم رئيس المخابرات الجديد:

- الأمر أسهل مما تصورون.. فأنتم لم تتقنوا مهنة المخابرات بعد وسأعطيكم درسا لا تنسوه..

وأضاف والكل ينظر إليه مبهورا:

- اخرجوا إلى الطريق أو ادخلوا إلى أي مكان، واقبضوا على أي مجموعة من الرجال، وضعوا في أيديهم القيود.. إنهم رجال المقاومة. فلن نحتاج إلى شهود، فنحن الذين نلقي الاتهام، ونحن القضاة ونحن السجانون.. قبل أن يسخر منا الجميع

ويقولون: هل من المعقول أن تفعل امرأة بهم كل هذا. . وإن كانت هذه الحقيقة على ما يبدو. . ورغم هذا فالحقيقة دائما مكروهة.

ويضيف في ابتسامة قاسية:

- إذن علينا أن نؤلف لهم حقيقة يحبونها. . هل فهمتم الدرس أيها الأذكياء!

وفي النشرة التالية، أعلن القبض على العصابة في الخبر الرئيسي الأول، والتهاني التي وصلت رئيس الاستخبارات من القيادة، ونائب الزعيم. . وفي خبر صغير في آخر النشرة قال المذيع حاولت بعض طائرات الأعداء -الذين يقفون على الحدود من حثالة الأمم - حاولت طائراتهم الهجوم على بغداد، فتصدى لها دفاعنا الجوي، ومدفعيتنا، فأبادتها ولم ترجع لهم طائرة واحدة. .

قضى فيصل ليلتين شاردا، وأخيرا استدعى فالح الشويخ وقال له:

- فالح. . إنني ذاهب في مهمة عاجلة -وقد لا أعود منها- ولديك الآن من الخبرة وبما تمتلك من شجاعة يؤهلانك لأن تتولى قيادة المقاومة. .

ويرد فالح مصعوقا:

- قيادة المقاومة. . وأين ستذهب يا فيصل؛ لا تواصل معي هذا العبث، إنك تمزح بلا شك.

- لست مازحا يا فالح ومعك الحرس القديم ومعك مجموعة من الأبطال الذين تحملوا عبء الكفاح كأسد وأوس والسعيد والزعابي والصالح والغنيم والعثمان والبابطين والعبدالله كل واحد منهم بألف. . ومعك فتيات جسورات تفوق شجاعتهن الرجال تلميذات لبنى. . فاطمة الخزعل، وأميرة الجاسم، وهدى السلطان، ونوره الوزان وغيرهن.

ويواصل الشويخ مرتاعا:

- وأنت ماذا ستفعل؟! وأين ستذهب؟

- سأذهب خارج الحدود في مهمة عاجلة..

- وتتركنا، والبشائر أخذت تلوح في الأفق؟! فقد نشرت إذاعات العالم تقدم القوات المحاربة صوب الكويت، وعلينا أن نضاعف في هذا الوقت هجماتنا لنزيد في ارتباكهم، ونعجل بانتصار القوات التي جاءت لمعاونتنا؛ أمن المعقول أن تتركنا في هذا الوقت؟!

- فيك البركة يا فالح..

- ولكن أخبرني.. أين ستذهب، أرجوك.. لا تقتلنا..

ويقاطعه فيصل:

- تماسك يا أخي ماذا سيحدث لو أصابتني رصاصة.. أليس الرصاص صناعتنا الآن.. وكما نَقتُل من الممكن أن يحل علينا نفس المصير.. فهل سيتوقف التحرير، وتموت المقاومة؟! إن حياة الشعوب لا تنتهي بموت فرد منها مهما بلغ قدره، ففيها من يستطيع حمل أمانة كفاحها.. وشعب الكويت غني برجاله أكثر مما هو بثروته، فأرجوكم أن تترجموا هذا بكفاحكم الذي لن يلين حتى يتحقق النصر.. وهو قريب بإذن الله..

- ولكن أين ستذهب هل ستسافر خارج الحدود!! إنهم يرسلون إلينا من الخارج كل ما نطلب من ذخيرة وسلاح وأموال.. فلماذا تتركنا الآن وتذهب!!

- ربما في مهمة عاجلة، وستعرف هذا في القريب..

ثم أضاف:

- و إذا سألك الإخوة فأخبرهم بأنني ذاهب في مهمة عاجلة خارج الحدود..

***

أوقف فيصـل سيارته أمام مبنى الاسـتخبارت في الكويت، وتـوجه إلى الحراس الذين وقفوا في طريقه قائلا:

- أريد مقابلة مدير الاستخبارات..

- من أنت؟

- رجل من عباد الله.. كويتي ولد كويتي

- وماذا تريد يا كويتي يا ولد كويتي!!

- ألم تسمع؟! أريد مقابلة المدير هنا.. مدير الاستخبارات

- وماذا تفعل عنده..

- عندي أخبار هامة له ستسره!

ذهب الجندي، وجاء وأشار له بالدخول.. وهو يردد ساخرا:

- تفضل يا كويتي يا ولد كويتي..

سأله رئيس المخابرات في صلافة:

- ماذا تريد؟!

- لست المدير يا سيدي، فأنا أعرفه.. إنني أريد المدير شخصيا..

- ومن أين لك أن تعرفه... أصدقاء!!

- قلت لك إنني أعرفه، وهو يعرفني جيدا، ولدي أخبار له

تكلم الضابط في جهاز بضع كلمات.. فدخل ضابط من ضباط الاحتلال في ذلة قائلا:

- تكرم سيدي..

- هذا الرجل يدعي أنه يعرفك، ولا يعترف بي، ولديه أخبار يريد أن يقولها لك إسمع ما يريد أن يقول فربما..

- عفوا سيدي..

ثم يتجه نحو فيصل ويقول بخشونة:

- ماذا تريد يا أعمى القلب والبصيرة.. هذا رئيس الاستخبارات العامة في العراق..

ويقول فيصل ساخرا:

- وأنت؟

- أنا مدير الاستخبارات هنا.. ولكن من أنت.. أجئت تستجوبنا.. أننا الذين نستجوب الناس بل والملائكة والشياطين.. فمن أنت؟!

- أنا فيصل الثنيان!!

وتجحظ عيونهما، وكأنما ظهر لهما عفريت فيقول له ساخراً:

- كم فيصل هنا.. كلما مات فيصل ظهر فيصل آخر!!

- كلنا فيصل

- وماذا تريد أيها المجنون المدعي، ألا تعرف ثمن ادعائك هذا؟!

- أريد أن أقول لكم أنني فيصل، ولم ألق مصرعي في شط العرب كما تدعون، وأنني الذي قمت بالإشراف على جميع العمليات الأخيرة وليست لبنى. فهي بريئة.

- أنت الذي قمت بكل هذا؟ وتدعي أيضاً أنك فيصل؟ لاشك أنك مجنون..

- أنا لست مجنوناً، ولديّ الدليل، وهو ليس البطاقة المدنية، ولكنه لبنى نفسها.. إنها بريئة، وقد أرادت أن تحميني، وهي بريئة ولادخل لها في كل ماحدث..

أحضروا لبنى، وسألوها عن فيصل الثنيان، فأظهرت عدم معرفتها به وأصرت على أنه ليس فيصل وأنه مات وانتهى أمره في شط العرب.. كانت آثار التعذيب بادية عليها.. فرجاها فيصل أن تخبرهم بحقيقته، ولكنها ظلت على إنكارها..

فيقول مدير المخابرات بعد أن يئس منهما:

- أرى سيدي أن نقتلهما معاً وننتهي منهما، فقد اعترفا بجرائمهما..

ولكن الرئيس يهز رأسه ويقول:

- ليس قبل أن نتأكد من هذا المدعي.. فربما يكون فيصل الثنيان فعلاً، ألايمكن أن يكون هو.. فلو كان هو لأصبح الأمر مختلفا..

وأخذ رئيس الاستخبارات العامة يمني نفسه أن يكون هو فعلا فيصل الثنيان وأن يبدأ عهده بهذا الاكتشاف.. وأن يضع يده على "جرجور" الكويت كما يقولون هنا.. إن حياة فيصل الثنيان تساوي وزارة في التشكيل الوزاري الجديد، أو محافظاً للكويت على الأقل؛ إن أبواب المجد والثراء معلقة بهذا المدعو فيصل الثنيان.. فأمر بالتحفظ على فيصل، ولبنى في مكان أمين بالإدارة، ولايمكن لأحد اتخاذ قرار بشأنهما إلا بموافقته شخصياً، فربما تقر في النهاية بأنه فيصل إذا لم يعثر على ملفه في الرئاسة العامة في بغداد.. فليس من المستبعد أن يكون إنكارها لحمايته ودليل قاطع على أنه هو..

نسي الرئيس العام للاستخبارات كل الأنباء والأخبار التي تذيع تقدم القوات صوب عاصمة الكويت، فكلها ادعاءات وأوهام، فالزعيم قادر بقواته التي لاتقهر على دفنها في الصحراء.. فلم يبق في ذهنه سوى أحلام المجد والثراء الذي سيناله بتسليم فيصل الثنيان لنائب الزعيم بل للزعيم رأساً..

ويدخل جندي مهرولاً قائلاً:

- سيدي مكالمة لك على الهاتف من بغداد من الرئاسة العامة للاستخبارات..

* * *

دخل حامد الجوهري متجهماً على فالح الشويخ قائلاً:

- أنا ذاهب الحين للبحث عن لبنى في أي مكان لدى هؤلاء المجرمين.. أنا لاأطيق الحياة بدونها.. إنها حياة كالحة لاطعم لها ولاشكل.. أن تجد إنساناً يأخذ منك زوجتك ظلماً لأنها تدافع عن بلادها، وعن بنات جنسها.. كيف تكون هذه حياة؟ وأي وحوش هؤلاء؟!

- إن الحياة أيها الشاعر لها منطق يختلف عن منطق الشعراء والعقلاء فالشعراء يعيشونها عالماً سحرياً لاتقع عيونهم إلا على الجمال، يترجمونه للآخرين وعندما يصطدمون بواقعها المرير يتألمون ويبكون، ويترجمون هذه الأحاسيس مرارة وأسى، ولكنهم لايستطيعون أن يغيروا من واقعها المادي القاسي شيئاً، والعقلاء لايملكون غير المنطق، وهو عاجز عن التغيير دائماً لأنه لايملك أدواته كالشعراء.. فلم يبق إلا أولئك الذين يملكون السلاح، وهم غالباً مغترون بقوتهم، والمغتر بقوته يتحول إلى كائن بين الحيوان المفترس والإنسان، واستمرار هذا الغرور يفقده إحساسه بأي قيمة، ولايبالي بمشاعر الآخرين أو عواطفهم أو مآسيهم، ويتصرف كأنه مالك الكون وحده لاشريك له ولاعواطف ولا أحاسيس لغيره.. فهمت!

- أنا لاأقبل أن أعيش حياة كهذه.. وليَمُت الإنسان أفضل من أن يعيش هذه الحياة اللعينة التي لم تخط خطوة أبعد من حياة الغاب ومنطقها

- هذه هي الحياة إذا أردت أن تعيش فيها.. ألم تر ماحدث للكويت بأسرها؛ ماذا جنينا! وماذا فعلنا حتى يحدث لنا كل هذا؟ أهو موضوع زوجتك وحده.. إنه موضوع الكويت. بل موضوع ثلاثة أرباع العالم من الأمم التي لاتملك سوى حسن النية. إننا يا هذا نعيش عالم البشر.. فيه هيئة الأمم المتحدة.. ومؤسسات حقوق الإنسان. منظمات لإعاشة بعض الموظفين لا أكثر ولا أقل. هذه حياة الإنسان الذي لا زالت الوحشية تسكن في أعماقه.. فلا تذهب بعيدا في خيالك

- وهل نظل نقف في مكاننا هكذا.. فيصل تركنا ولا ندري أين ذهب.. ولبنى سجين عندهم.. إنني لا أطيق هذه الحياة.. إما أن أرتكب عملا جنونيا وإما أن أنتحر..

- انتظر قليلا يا جوهري.. ألم تقرأ ما رُوي عن عنترة إذ قالوا له كيف تهزم عدوك قال: إنني أتفوق عليه بلحظة صبر واحدة بعد نفاذ صبره.. والقائد الروسي هزم نابليون بالصبر..

ويرفض حامد منطقه ثائرا:

- ولكننا لا نعرف متى ينتهي احتلالهم.. سنكون قد انفجرنا من الصبر والغيظ والحزن.. يا فالح سأذهب لأنقذ لبنى.. سأعترف بأنني كنت وراء كل ما حدث.. وأنها لا تعرف شيئا، وفعلا أنا كنت أنقل الجثث.. فلماذا نتركها تلقى مصيرها وحدها، إنها كانت تحارب من أجلنا جميعا..

- إصبر يا جوهري.. فالأخبار متضاربة.. في الإذاعات العالمية يقولون إن الجيوش الزاحفة للتحرير عبر الحدود.. قد أصبحت على مشارف الجهراء.

- ولكن أخبار بغداد تقول: إنهم ردوهم على أعقابهم، وأنهم دفنوا نصف المهاجمين في الصحراء.. والنصف الآخر قد عادوا مدحورين إلى حفر الباطن.. فأيهما نصدق!!

- صدق عقلك يا أخي.. لقد جاءتني أخبار منذ دقائق بأن جنود المحتل في ارتباك، وجميع حافلاتهم وسياراتهم تتجه نحو الشمال

- ولكنهم في الأخبار منذ قليل يقولون: إنهم قبضوا على زعيمة المقاومة ويتهكمون على رجال الكويت بأنهم يختفون خلف النساء،..

ويضحك فالح الشويخ قائلا:

- دعهم يقولوا ما يشاءون.. فلن يضير الكويت أن تكون نساؤها بهذه الشجاعة.. لقد نجحت الكويت في تربية بناتها، فوقفن مع الرجال في صف واحد يدافعن عن ترابه.. وهذا لن يعيبنا.. أليست هذه إذاعتهم وشهادتهم..

- ولكنني لا أستطيع الصبر، إنه سيقتلني يا فالح..

- قلت لك إن الأخبار متضاربة، وربما قد اقترب الفرج ونحن لا ندري.. لا تسمع لأخبارهم.. فربما يكونون الآن في طريقهم لبغداد هاربين، وقد يحدث هذا فجأة.. ولن يعلنوا هذا بالمرة حتى لا يدفنهم الشعب هنا قبل فرارهم.. إنهم يفكرون لصالحهم.. ولهم منطقهم أيضا..

ويقول الجوهري في غيظ:

- إنك هادئ الأعصاب أكثر من اللازم.. ألا تسمع لأخبارهم..

- نادرا...

- لقد أذاعوا خبراً أزعجني أيضاً.. لقد قالوا إنهم قبضوا على شخص يدعي أنه فيصل الثنيان.. وعلقوا عليه قائلين: إن الخارجين على القانون بدأوا يفقدون عقولهم.. فقد لاقى مصرعه منذ عام تقريبا، وأكلته أسماك شط الخليج..

ثم يضيف في انزعاج:

- ألا تظن أنه ربما يكون هو فيصل.. وقد فعلها لينقذ لبنى.. أنا أعرفه إنه هو.. فهو برغم شجاعته ملاك يملك قلب طفل صغير.. وجرجور يفتك بأعداء الوطن.. وقد رأينا بطولته الخارقة..

ويقف فالح على قدميه وقد تغير وجهه وهو يردد:

- أحقا سمعت هذا الخبر!!

- كما أراك الآن..

ويدير فالح مفتاح المذياع وهو ينظر لساعته.. ويقول:

- ثوان ونسمع أخبار صوت الكويت في الخارج...

يعلن المذيع أن جيش الاحتلال يهرول هاربا من الكويت خوفا من وقوعه أسيرا في أيدي قوات التحرير.. فيقول فالح:

- حانت لنا فرصة ذهبية للعمل.. إذ لابد من من مهاجمة فلولهم.. واصطياد ما يمكن اصطياده منهم.. هذه فرصة ذهبية للانتقام...

ثم يواصل وهو يبتسم لأول مرة من قلبه:

- اتركوا هذه العملية لي فسأنطلق لها مع قوات المقاومة الشعبية، أما أنت يا جوهري، فابحث عن أوس والزعابي، والغنيم وعوني ومحمود ومعاوية، واذهبوا إلى أضيق نقطة تمر فيها قوات الاحتلال المنسحبة، وليكن في المطلاع، بعد أن تلبسوا ملابسهم العسكرية من رتبة الضباط، وأن تستعرضوا من بعيد القوات المنسحبة على الطريق، فلعلكم تعثرون على فيصل ولبنى إنها فرصة يجب ألا تضيع منا..

- ولكن كيف نستخلصهما منهم؟!

ويقاطعه فالح قائلا:

- في حالات الانسحاب.. ليس هناك نظام.. ولن يسألك أحد عن هويتك فالكل هارب، ويريد أن ينجو بنفسه قبل أن يقع أسيرا، وحالات الارتباك هذه يتم فيها كل شيء، حتى السرقة والقتل، ولن يتوقف أحد ليتحقق أو يسأل.. هيا يا جوهري تحرك، ولا تسأل كثيرا.. فيكفي أن توقف الجنود الذين يحرسونهما، وأن تقولوا لهم:

وقف هؤلاء وسلمهم لنا، فقد انتهت مهمتكم عند هذا الحد. . إنها عملية فدائية من نوع جديد وعملية بسيطة خضتم أشد منها ألف مرة، ولن أشرح لك أكثر من هذا فإن معك أساتذة في مثل هذه العمليات. .

وينطلق الجوهري وفي أعقابه فالح الشويخ. . لقد كانا حزينين رغم أن الموقف يستدعي الفرح. . ولكن كيف تكون الكويت المحررة دون أبطالها الذين خاضوا طريق الكفاح، وتحملوا كل هذه الآلام والأهوال التي صادفتهم، لن يكون الأمر سهلاً عليهم، ستشوب حلاوة النصر هذه المرارة التي ستظل في حلوقهم دائماً. . حتى يعثروا عليهما أو تظل هذه المرارة إلى نهاية العمر. كانت هذه الأفكار تراود فالح والجوهري بل كل من عمل في مجال المقاومة السرية، وعرف بلاءهما. .

ومرت يوم بطوله والجوهري والمجموعة معه تستعرض كل المارين من فلول الجيش الفار ولكن لا أثر لفيصل أو لبنى. . حتى جاءهم رسول من فالح يطلب منهم العودة فوراً. . قبل أن تقتلهم قوات التحرير فقد يظنون أنهم من جيش الاحتلال، إنهم يلبسون ملابسه. . .،

وطلب منهم فالح فور عودتهم أن يذهبوا إلى ثانوية الشويخ عند الغروب

ونظر في ساعته وقال:

- لم يبق سوى نصف ساعة وسنكون هناك جميعاً. .

- دون فيصل ولبنى. . لن يكون هناك طعم لشئ عندي. . أما أنتم فلكم شأنكم. .

ويقول فالح مزمجراً:

ستظل الكويت وإن فقدت أعز أبنائها، فهي قادرة على الإنجاب، إنها ولود

معطاء ولقد قلت لـك اذهب أم ستخرج على أوامري.. فـلازلت صاحب الأمر والنهي حتى تستتب كل الأمور.

ويمضي حامد وزملاؤه، وهناك يجد جمعاً يتعانقون، وبينهم فيصل الثنيان..

- أين أنت يافيصل؟!

ويعانقة وهو يبكي قائلاً:

- ولكين أين لبنى حبة القلب والعين.. أنا لا أصدق أنها ذهبت إلى الأبد..

ويقول له فيصل وهو يعانقه مرة ثانية:

- انظر خلفك..

- إنها هي.. بحلاوتها ورقتها وروعتها..

ويقول فيصل ضاحكاً:

- دع هذا فيما بينكما أيها الشاعر الشجاع المحلق في دنيا الخيال..

- ولكن أين كنتما.. لقد ظننا أنكما..

- سأشـرح لك الأمـر فلا تتـعجل، ولا تعكر صـفونا الآن بذكـرهم يازوجي العزيز، وإذا أردت أن تعرف، فحب الاستطلاع لديك زائد عن الحد، فاسأل فالح، فقد كدنا نهلك. ثلاثة أيام قضيناها بلا طعام أو شراب.. بعد حملة تعذيب بشعة..

ويقول فالح:

- عندما قـلت لك انطلق مع مجـموعتك إلـى الحدود.. انطلقت إلى سـجون الكويت واحداً واحـداً.. لم أجدهما.. لم يبق أمـامي إلا مكان واحد وكان احتـمالاً ضعيفـاً وهو البحث في إدارة الاستخبارات، فربما يكونان هناك.. تركـوهما مهرولين،

وقت أن جاءهم أمر الانسحاب وكان هذا الاحتمـال الواهي. . هو الحقيقة. وجدتهما محجوزين في غرفتين. . وقد فقدت لبنى الوعي تقريباً.

ويقول فيصل ضاحكا:

- دعنا من كل هذه الذكريـات. . إنها فترة امـتحنت صلابـة الشعب الكويتي، وقد نجح في الامتحان. . وها نحن قـد عدنا لنرى الشمس وهي تغرب أمام بوابة ثانوية الشويخ على الخليج الخالد. . وستشرق غدا وإلى الأبد. .

(تمت)

القاهرة

أول أغسطس ١٩٩٥

رقم الإيداع	٢٠٠٠/٧٤٠٤
الترقيم الدولي	977-5758-62-9

هذا الكتاب

قـد يرحل الإنسـان عن المـكان . . ويحـزم أمـتـعـتـه ويمضى. . ولكن خيـوطـًا غير مرئية تظل تربـطه به وبمن فيه، وتشده إليه وإليهم مدى العمر!!

فما بالك بغزو دون سبب. . وفى زمن أصبح لا يعترف بهذا الأسلوب الهمجي. . ومن إخوة يأمن جانبهم !!

لقد كان هذا الغزو كارثة أصـابت العالم العربي بالدهشة والحيرة. والحزن بل وعدم الفهم وانعدام الوزن !!

فماذا تقـول إذا صحوت من نومك فوجـدت أخاك يرفع السلاح في وجهك ليقتلك دون سبب سوى الطمع؟!

أتقول له: إنني أخوك . . إنه يعرف هذا، أتقول له: إن هذا لا يجوز بين أخوين؟!

لقد فقد الإحساس بهذه الصلة الأزلية عندما رفع السلاح في وجهك، ومزق قيمة أثمن من كنوز الدنيا بأسرها!!

الناشر